

الإمام الأكبر

الدكتور عبد الحليم محمود (شيخ الإسلام)



محمد خالد ثابت





محمد خالد ثابت



اسم الكتاب : الإمام الأكبر
عبد الحليم محمود

المؤلف : محمد خالد ثابت

دار النشر : دار المقطم للنشر والتوزيع

سنة الطبع : ٢٠١٥ م

رقم الإيداع : ٢٠١٥/١٩٤٠٩

الترقيم الدولى : 978-977-478-094-3 I.S.B.N



صدرت الطبعة الأولى فى
محرم ١٤٣٧هـ – نوفمبر ٢٠١٥م

٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين
القاهرة- جمهورية مصر العربية

Tel: (00202) 27958215 – 27946109
Fax: (00202) 25082233

Email: elmokatam@hotmail.com


الإمام
الأكبر

مقدمة

بسم الله.. والحمد لله.. والصلاة والسلام على خاتم رسل الله.. سيدنا محمد.. وعلى آله وصحبه.. ومن تبع هداه..

وبعد..

فقد كنت أكتب فصلا عن الإمام الشيخ عبد الحليم محمود فى كتاب لى بعنوان "أحد عشر كوكبا من سماء مصر"[1] عندما وجدت قلمى يسترسل فى الكتابة عنه استرسالا لا يؤذن بانتهاء قريب.. وذلك لتعدد جوانب شخصيتة، وثرائها الكبير.. وكذلك لعظم الدور الذى قام به، والذى نحن اليوم فى مسيس الحاجة إلى معرفته والاستفادة منه..

لذلك أنهيت ذلك الفصل على عجل، ووعدت القارىء بدراسة أوسع، ربما تغطى جوانب أخرى جديدة على قدر ما يوفق الله..

وهأنذا أعيد النزول بساحة الشيخ الإمام لأضيف بعض ما لم يتيسر لى إضافته من قبل.. وإنى لأعترف –فى هذا المجال– بأن شخصية الإمام –رضى الله عنه– تحتاج للمزيد من الدراسة والبحث.. لتحقيق المزيد من الانتفاع به والاستفادة من كنوزه..

---

(١) صدر فى سنة ٢٠٠٩ ميلادية، عن دار المقطم للنشر بالقاهرة.

فهذا رجل كان يعيش بيننا بالأمس القريب.. ولكنه اختلف عنا فى أنه فهم عن ربه.. فلم يدخر من طاقته طاقة.. ولا من وقته وقتا.. ولا من ماله مالا.. إلا بذله كله لله..

خمس سنوات فقط قضاها فى آخر عمره شيخا للأزهر.. ملأ فيها الأسماع والأبصار بعمله الخالص لله.. لا لهوى، ولا لذى نفوذ أو سلطان..

سما بالمنصب فوق أمور الدنيا وطموحاتها الملحاحة.. وانشغل بهموم الدين فى وقت أحاطت به الأعاصير.. وكانت هموم المسلمين وآمالهم هى همومه وآماله.. فاجتمعت حوله القلوب.. وبزغ به- من جديد- الأمل فى رابط يجمع الأمة الواحدة ، بعد أن تفرقت شيعا.. كل حزب بما لديهم فرحون..

إنها التربية الصوفية الصحيحة، التى ترفع أهلها إلى مراتب الربانيين..

فى الصفحات التالية محاولة، أسأل الله أن يجعلها صادقة، للتعرف على هذا الإمام، لعلنا ننتفع به.. وأسأل الله الجواد الكريم أن أكون به أول المنتفعين!.

محمد خالد ثابت


الإمام
الأكبر
د.عبد الحليم محمود (شيخ الإسلام)



الاستقامة عنوانه

الفصل الأول

السيرة الطيبة

هو شيخ الإسلام، وشيخ الأزهر الشريف..

أحد الربانيين فى هذا الزمان..

الرجل الذى جمع الله فيه أمة بأسرها..

الشيخ عبد الحليم محمود، رضى الله عنه.

* * *

المولد والنشأة

وُلد فى سنة ١٩١٠ من ميلاد السيد المسيح على نبينا وعليه الصلاة والسلام، بقرية "السلام"، بناحية "بلبيس"، بمحافظة الشرقية بمصر. وقرية السلام هى فى الأصل عزبة أبى أحمد التى ذكرها فقال:

[وأبو أحمد هو جد والدى. وقد بنى جدى هذه العزبة بيتا بيتا، وكانت مسكنا للأسرة، وأصلح جدى أرضها فدانا فدانا.

وتسمى الآن قرية السلام، تتبع مركز بلبيس، وتبعد عن بلبيس بمقدار أربعة كيلومترات، وتبعد عن القاهرة بمقدار خمسة وأربعين كيلومتر تقريبا. يحدها شرقا الصحراء الشرقية، ويحدها غربا الترعة الإسماعيلية..][1]

---

(١) الحمد لله هذه حياتى للدكتور عبد الحليم محمود، دار المعارف بمصر، ص٣٦.

عن نشأته وأسرته قال:

[نشأت فى أسرة تتسم - فى الظاهر والباطن - بالتدين، وكان والدى رحمه الله يفرض جو التدين فى إرادة لا تلين] (١)

وصف والده بصفات حميدة وأخلاق نبيلة مما أكسبه محبة الناس والتفافهم حوله، وفزعهم إليه فى الملمات، ولا يُستغرب هذا على من ينتمى إلى دوحة النبوة، فتلك شيمهم وأخلاقهم..

والده شريف حسينى، وأمه أيضا شريفة حسينية.. أثنى عليها بقوله:

[وهبت حياتها فى سماحة لوالدى، ولأبنائها، ولم تأل جهدًا فى توفير الراحة لهم، وكانت كريمة بالنسبة للفقراء والمساكين، تعطف عليهم، وتبرهم، وترسل إليهم من الطعام والكسوة..] (٢).

نشأ وترعرع -إذن- فى بيت عفاف وطهر وإقبال على الله، واهتمام بكل ما يقرِّب إليه..

وأتم حفظ القرآن الكريم فى سن مبكرة على يد محفظ القرية، ويصف الفرحة التى غمرت البيت وأهله بذلك الإنجاز الكبير فيقول:

---

(١) الحمد لله هذه حياتى للدكتور عبد الحليم محمود.

(٢) الحمد لله هذه حياتى ص ٣٠ – ٣١.

[كان يومًا مشهودًا ذلك اليوم الذى ختمت فيه القرآن الكريم. لقد كان والدى فى فرح غامر، وكان البيت كله فى بهجة وسرور شاملين، وكانت حفلة حافلة بأطايب اللحم والثريد، خُتمت بالذكر شكرًا لله تعالى.] (١)

فى سنة ١٩٢٣ سافر مع والده إلى القاهرة ليلتحق بالجامعة الأزهرية العريقة، وكانت الدراسة لا تزال -فى ذلك الوقت- داخل المسجد، وفى هذا يقول:

[كان المسجد منذ بدأ الإسلام إلى عهد قريب يرتبط بالمعهد برباط وثيق وكان المعهد شديد الارتباط بالمسجد. لقد فقدنا نحن -الآن- فكرة المسجد المعهد، أو المعهد المسجد.

ويجب أن نحييها من جديد ونعود إليها، فإنه فرق هائل بين أن تدرس تفسير القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والفقه فى المسجد وأن تدرس ذلك فى غرفة فى مبنى لا يشع منه ما يشع فى المسجد من نور الإيمان وجلال المكان وعبير العبادة..] (٢)

* * *

(١) الحمد لله هذه حياتى ص ٣٨ – ٣٩.

(٢) شيخ الإسلام عبد الحليم محمود، رؤوف شلبى، دار القلم بالكويت، ١٩٨٢، ص٢٨.

فى الأزهـــر الشـريـف

فى الأزهر المعمور درس على نفر مـن المشـايخ الأفاضـل الـذين نوّه ببعضهم فى سيرته الذاتية: "الحمد لله هذه حياتى" ووصفهم بالجـد فى تحصيل العلم[(١)]..

فى تلك الفترة تم تزويجه زواجًا سريعًا وفى سن مبكرة جدًا، قال فى ذلك:

[فى منتصف العام -تقريبا- زارنى والدى -رحمه الله تعالى-.. وشرع يحدثنى عن الزواج، وعرض علـىّ أسماء فتيات، واستطلع رأيى. كانت سـنى -آنـذاك- ثلاث عشرة سنة. وكان رأيى الذى قلته له: الأمر لك ولوالدتى.

وعـاد والـدى إلى العزبـة، ومضـت فـترة، جـاءنى بعدها خطاب يقول فيه والدى: إن الأسـرة كلـها فـى شوق إليك، فاحضر لتراك ولتطفىء غلّة شوقها إليك.

وعُدت إلى العزبة فى مساء الأربعاء، وتم عقـد زواجـى فى يوم الخميس، وعُدت إلى القاهرة فى يوم الجمعة.][(٢)]

---

(١) الحمد لله هذه حياتى ص٩٢.

(٢) الحمد لله هذه حياتى ص ٧٦.

ثم يكمل قصة زواجه فيقول:

[ونجحت فى الامتحان، وعدت لأقضى العطلة الصيفية بين الأهل، وانتهزوها فرصة لإتمام الزواج بالزفاف، وركبت الفرس -كما هى العادة فى الريف- وطاف بى فى شوارع العزبة وحولها، وتعالت الزغاريد، ودقت الطبول، وصدحت المزامير، وأُطلقت الأعيرة النارية بكثرة غير معهودة، وارتفعت أصوات الغناء..

ثم مُدّت الموائد، واجتمع الناس على طعام كثير وخير وفير.

ثم كان ذكر الله تعالى، وقرآن يتلوه قراء مشهورون، وسهر الناس -سكان العزبة وماجاورها- ليلة ممتعة، ظل طيفها ماثلاً فى الأذهان سنوات طويلة يتحدث به من شهده.] (١)

ولا يفوت الشيخ أن يبين -وهو يحكى قصة زواجه- فوائد الزواج المبكر فيقول:

[هذا الزواج المبكر -إذا كانت الحال ميسورة- ماذا تقول فيه؟.

---

(١) الحمد لله هذه حياتى ص ٧٧.

إنـه عصـمة وعفـة. ومـا مـن شـك فـى أن الآراء تختلف فى شأنه، ولكن الأمر الذى لا مريـة فيـه، هـو أن تأخير الزواج -كما هو الشـأن الآن- فيـه خطـورة كبيرة على الذكور وعلى الإناث أيضا؛ خطـورة علـى العصمة، وعلى العفة، ولا يمارى فى ذلـك إلا مكـابر أو متجاهل..] [١].

* * *

أساتذته بالأزهر

تكلم الشيخ عن أساتذته الذين تلقـى عـنهم بـالأزهر الشـريف، منهم الشيخ محمود شلتوت، والشـيخ حامـد محيسـن، والشـيخ سـليمان نوار، والدكتور محمد عبد الله دراز، والشـيخ محمـد عبـد اللطيـف دراز، والشـيخ الزنكلـونى، والإمـام الأكـبر الشـيخ محمـد مصـطفى المراغـى، والإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق.

وتكلم عن علومهم وشيمهم الفاضلة، وغير ذلك، وقال:

[كانوا يمتازون بالجد فى تحصيل العلـم، ومـا مـن شك فى أنهم لم يضيعوا وقتا فى اللغو، وإنمـا سـهروا الليـالى فـى تحصـيل العلـم، وكانـت ثمـرة ذلـك أن

---

(١) الحمد لله هذه حياتى ص٧٧.

أصبحوا من النابهين]. [١]

وتكلم عن بعض من تأثر بهم فى تلك الفترة المبكرة من حياته، فقال:

[كنت لا أتخلف عن محاضرات الدكتور أحمد محمد الغمراوى بجمعية "الشبان المسلمين"، وكان -رحمه الله تعالى- من أصدق الناس حديثا، وأعظمهم رأيا فى موضوع العلم والدين..

وكنت أتردد -أيضا- على "جمعية الهداية الإسلامية"، وكان المرحوم الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين رئيسا لها..

وقد تعرفت -فى أثناء الدراسة بالقسم العالى- بالأستاذ الكبير محمد فريد وجدى، وكان يستقبل زائريه كل يوم بعد صلاة المغرب لمدة ساعة يتحدث إليهم، ويجيب على أسئلتهم، ويدلى برأيه فيما يثار من موضوعات فى الصحف اليومية.][٢]

أتم الشيخ دراسته بالأزهر، وتقدم للامتحان لنيل "العالمية"،

---

(١) الحمد لله هذه حياتى، ص٩٢.

(٢) الحمد لله هذه حياتى ص٩٠- ١١٢.

وبلغ من حرص والده عليه أن يتعلم علوم الشرع الحنيف، وأن يتفـوق فيها، أنه ظل ملازما له فى تلك الأيام، فيقول:

[أما والدى فإنه قد أسرع إلى ضريح العارف بـالله الإمام أحمـد الـدرديرى واعتكـف بمسـجده يقـرأ مـن القـرآن الكـريم ماتيسـر، وبخاصـة سـورة "يـس"، ويتضرع إلى الله تعالى أن يوفقنى ويكتب لى النجـاح.. ونجحت والحمد لله] (١)

وكان ذلك فى سنة ١٩٣٢ (٢).

كان والده يتطلع لأن يراه مدرسًا بالأزهر الشريف، الجامعة التـى تهفو إليها قلوب المسلمين فى الدنيا كلها.. ولكن الـذى حـدث لم يكـن يخطر له على بال.

لقد أعلن الشيخ عن رغبتـه الملحـة فـى السـفر إلى فرنسـا لإتمـام دراساته ونيل درجة الدكتوراه من جامعاتها ؟!..

ولما كان هذا الأمر فى الكتاب مسطورا.. فقد نفـذ بـه القضـاء.. وأسلم الوالد أمره لله.. ومضى مع ولده إلى الإسكندرية ليودعه.. ومنهـا

---

(١) الحمد لله هذه حياتى ص ١١٣.

(٢) شيخ الإسلام عبد الحليم محمود، د. رءوف شلبى، دار القلم، الكويـت، ١٩٨٢، ص ٦٦٠.

سافر إلى فرنسا على متن باخرة – كما يقول: لأول مرة[١].

* * *

السفر إلى فرنسا

كان سفر الشيخ إلى فرنسا فى نفس السنة التى تخرج فيها من الأزهر، وكان ذلك على نفقته الخاصة، حيث التحق بالدراسة فى جامعة "السوربون"، ودرس فيها علم النفس وعلم الاجتماع وتاريخ الأديان..

ثم سجل بنفس الجامعة للدكتوراه فى التصوف الإسلامى، وكان موضوع الرسالة: "أستاذ السائرين المحاسبى" ونوقشت الرسالة فى سنة ١٩٤٠ مناقشة علنية، ونال درجة الامتياز مع مرتبة الشرف الأولى[٢].

* * *

كيف قضى الشيخ تلك السنوات الثمانية فى باريس بلد الأضواء.. والمغريات.. والفتن؟..

يقول الدكتور رؤوف شلبى فى كتابه عن الشيخ:

[لقد خرج الشيخ عبد الحليم من مصر وهو محصن عفيف، عالم معتز بأزهره، فاهم لكل مخططات

---

(١) الحمد لله هذه حياتى ص ١١٤.

(٢) شيخ الإسلام عبد الحليم محمود ص ٦٦٠.

الاستعمار، مدرك لأبعاد المعركة ضد التيار الإسلامى فى مصر..] [(١)].

لذلك لم يتأثر بكلام مدير مكتب البعثة المصرية الذى وجّه له بعض النصائح الخاصة باختلاف التقاليد والعادات فى فرنسا عنها فى بلادنا، فلا داعى للتزمت، على حد تعبيره[(٢)].

لم ينبهر بنظافة الشوارع.. وجمال الحدائق.. ونشاط الناس وإقبالهم على العمل.. وغير ذلك..

إنما أدرك أن هذه الصورة ناقصة، لاتكتمل إلا بالإسلام، وأن الإسلام هو دين النظافة.. والنظام.. والإخلاص فى العمل.. فكان يرى كل شىء بنظّارة الإسلام التى لم يخلعها عن عينيه فى مصر ولا فى باريس ولا فى أى مكان إلى أن لقى ربه على فطرة الإسلام.

لم يشغل نفسه طوال إقامته بباريس إلا بالدرس والتحصيل، لم يذهب قط إلى مواطن الفتن وأحياء اللهو.. وحين أتته الفتن إلى عنده أوصد دونها بابه بجزم وإصرار.

لم يكن الشيخ يعرف الفرنسية قبل وصوله إلى باريس، وفى يوم كان مع أحد أساتذته بالجامعة، وهو المستشرق الفرنسى "موسيه" الذى

---

(١) الحمد لله هذه حياتى ص ٣٨.

(٢) شيخ الإسلام عبد الحليم محمود ص ٤١.

كان يتقن العربية..

[وفجأة نادى "موسيه" على فتاة وقال لها: إن هذا الأزهرى لا يعرف الفرنسية ويريد أن يتعلمها، وأنت لا تعرفين العربية وتريدين تعلمها. فاذهبى إليه فى غرفته وبادليه درسًا بدرس، فالدروس هنا لا تسعفه..

وأحس الشيخ عبد الحليم بالخجل؛ كيف يتأتى أن يسمح له عفافه ودينه بأن يخلو بفتاة فى غرفة ويغلق عليه وعليها الباب؟!

فتخلص من هذا المأزق باعتذاره عن هذه المساعدة لأنه بعد لم يستأجر غرفة مناسبة.. لم تكن هناك عقبة فالتحق بمدرسة ليلية عاونته على التقدم السريع فى الفرنسية..] (١)

ولسوف نرى -إن شاء الله تعالى- أثر هذه "التقوى" فى حياة الشيخ الإمام وما أغدق الله عليه من علوم وفهوم وأنوار.. مصداقًا لقوله سبحانه وتعالى:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾

وإنك لترى بارقة من هذا فى قول الشيخ:

---

(١) الحمد لله هذه حياتى ص ٤٠.

[ولم يكن من السهل علىّ فى أثناء هـذه الدراسـة الاستمساك الواثق بالقيم والمثـل التـى نشـأت عليهـا، ولولا عون مـن الله سـبحانه – وتوفيـق منـه لصـرت كواحـد مـن الآلاف الـذين يدرسـون فـى الجامعـات الأوروبية ثم يخرجون منها وقد تحطمت فـى نفوسـهم المثل الدينية الكريمة.] [(١)]

❊ ❊ ❊

تكلم الشيخ عن المنهج الدراسى فى الجامعات الأوروبية الذى يفضى بالطالب حتما إلى الإلحاد، إلا من عصمه الله، فيقول:

[ودخلت الجامعة، وبدأت الدراسة فى علم الاجتماع وعلم النفس، ومادة الأخلاق وتاريخ الأديان. وكانت هذه المواد يتزعم دراستها وتدريسها الأساتذة اليهود الذين تتلمذوا على الأساتذة اليهود!.

وكانت هذه المواد كلها تسير فى تيار محدد، وهو أنها علوم مجتمع، لا تتقيد بوحى السماء، ولا تتقيد بالدين على أنه وضع إلهى..

وبدأنا فى الدراسة نسمع مختلف الآراء فى نشأة الدين، ومختلف الآراء فى تفسير النبوة، وينتهى الأمر

---

(١) الحمد لله هذه حياتى ص ١٧٧.

برأى الأستاذ.. وليس فى هذه الآراء على اختلافها وتعددها ما يتجه إلى أن الدين وحى من السماء، أو أن النبى موصول بأسباب السماء..

هذه العلوم بالذات، وفروعها، تتكاتف لتقود الإنسان متعاونة متساندة إلى الإلحاد.

هذه الأفكار تتكرر فى هذه المواد: تسمعها فى علم الاجتماع، وتسمعها فى علم النفس، وتسمعها فى دراسة مادة الأخلاق، وتسمعها فى دراسة تاريخ الأديان، وتسمعها فى دراسة العلوم المتفرعة من كل ذلك.

والشاب الذى انتقل من الأقسام الثانوية إلى الجامعة يتأثر بأستاذه، فإذا كان الأساتذة متكاتفين على هدم القيم الثابتة والمثل العليا التى يقررها الدين.. فإن الطالب ينتهى به الأمر فى الأغلب الأعم إلى أن تنهار هذه القيم فى شعوره..

وكنت –من غير ماشك– أضيق بكل ما يجرى فى هذه الدراسات، ولكن الله سبحانه وتعالى ألهمنى التفكير فى قيمة آراء الأساتذة أنفسهم فى هذه المواد.

وبدأت أفصل بين عالمين من المعرفة:

- عالم الماديات كالطب والطبيعة والكيمياء، وهى أمور تحكمها التجربة، ولا تتعارض مع الدين..

- وعالم التفكير المجرد فى الدين والأخلاق والمجتمع.

وأخذت أدرس فى أناة هذا الجانب الأخير من الزاوية التاريخية، فوجدت أنه منذ أن بدأ التفكير، بدأ فى اللحظة الأولى الاختلاف فيه، وبدأ كل زعيم من زعمائه ينتقد الآخرين فى عصره، وكل مفكرى عصر ينتقدون المفكرين فى العصر السابق عليه.. وهكذا الأمر.

وما من شك فى أن هؤلاء الأساتذة الذين يدرّسون لنا ينتقد بعضهم بعضا، ويخطّىء بعضهم بعضا..

وكنت أقـول فى نفسى -فى مواجهة كل أستاذ- سيهدمك المعاصـرون لك، وسيهـدمك الذين يأتـون بعدك.

ولكنى فى مواجهة كل هذه الآراء الإلحادية كنت أتشبث بيقين لا شك فيه.] [1]

* * *

(١) الحمد لله هذه حياتى ص١٧٢- ١٧٥.

دكتوراه فى التصوف الإسلامى

رأينا كيف ذهب الشيخ لإكمال الدراسة فى فرنسا كأنه مدفوع إليها بقوى غير منظورة، وهناك درس علم النفس والاجتماع وتاريخ الأديان..

ولما انتهى من دراسته تلك، وراح يتأهب لرسالة الدكتوراه لم يكن التصوف على باله، وإنما أراد أن يكتب فى موضوع يتصل بفن الجمال، فرُفض من أساتذته..

وتقدم بموضوع آخر يتصل بمناهج البحث، فرُفض أيضا.. لأن الأقدار التى استفزته من بلده، ليجىء للدراسة فى أوربا، كانت قد رتبت له غير ذلك.. وهو أن يدرس التصوف الذى هو روح الإسلام وجوهره، والذى سيكون المحرك الأكبر فى حياة الشيخ ، والذى سيقود به مسيرة الإصلاح إلى أن يلقى ربه!.

لذلك تجده يقول:

[وأخيرًا اتصلت بالأستاذ "ماسينيون" وتحدثنا طويلاً فى هذا الموضوع، وانتهى بنا الأمر إلى الاتفاق على أن أكتب عن التصوف الإسلامى من خلال دراسة الحارث بن أسد المحاسبى.

وكان هذا أول اتصال منظم وجاد بالتصوف

الإسلامى بالنسبة لى] [١]

وهكذا فُتح له الباب إلى التصوف!..

فولج على بركة الله..

أهلا به ومرحبا!..

* * *

يقول الشيخ فى موضع آخر:

[ولم يكن ذلك مصادفة، وإنما هى هداية وتوفيق من الله سبحانه وتعالى، وهى عناية أعجز عن شكر الله سبحانه وتعالى عليها.] [٢]

ولعل سائلاً يسأل: ألم يكن من الممكن دراسة التصوف فى مصر بدلا من هذه الرحلة الطويلة المحفوفة بالأخطار ؟

و الإجابة حتما: "نعم".. إلا فى حالة الشيخ الذى كانت الأقدار تعده لأمر آخر!..

فإنه بعد أن يطَّلِع على ثقافة الغرب وفلسفاته وأنماط حياته.. سيعود وهو أشد تمسكا بالإسلام وحضارته، وأكثر معرفة بأسباب القوة، ومواطن الضعف التى سيبذل بقية حياته فى العمل عليها.. لا فى بلده

---

(١) الحمد لله هذه حياتى ص ١٢٥.

(٢) الحمد لله هذه حياتى ص ١٧٧.

فحسب، ولكن فى العالم بأسره..

لأنه سوف يكون بحق: شيخ الإسلام والمسلمين.

* * *

بعد سنتين من بدء العمل للدكتوراه قامت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩، وتغيّر وجه الحياة واضطربت الأمور..

وصف بعض تلك الصعوبات التى لاقاها بقوله:

[... وبقيام الحرب اضطرب كل شىء بالنسبة لى، فالأستاذ "ماسينيون" قد استُدعى للجيش، وارتدى الملابس العسكرية.

وأصبحت مقابلته متعذرة، لا تتيسر إلا بمكتبه فى وزارة الحربية أو الخارجية، لست أذكر الآن على وجه التحديد، ولم يكن ذلك سهلاً..] (١)

وتفاقمت ظروف الحرب إلى أن سقطت فرنسا فى يد الألمان، فى شهر يونيو سنة ١٩٤٠ بعد أن تعرضت باريس للقصف الشديد من قبل الطائرات الألمانية.. (٢)

ولكنه، على الرغم من هذه الظروف الصعبة، استمر فى البحث

(١) الحمد لله هذه حياتى، ص١٢٦.

(٢) الموسوعة الحرة "ويكيبيديا"، تاريخ فرنسا الحديث.

والدراسة، غير عابىء بما حوله، حتى أتم كتابة الرسالة.. ونوقشت وحصل على أعلى تقدير، وكان ذلك أيضا فى سنة ١٩٤٠[١].

وبإتمام دراسته انتهت مهمته فى فرنسا، وسعى فورًا للعودة إلى مصر، ولم يقف فى طريقه انقطاع طرق المواصلات.. فقام برحلة طويلة عن طريق رأس الرجاء الصالح حتى عاد إلى بلده سالمًا غانمًا.

* * *

لقد كانت رسالة الدكتوراه عن الحارث بن أسد المحاسبى نقطة تحول فى حياته، بل نقطة انطلاق، إذ تبين من خلالها المنهج الذى سيلتزمه من الآن فصاعدا.. وهو ما يعبر عنه صراحة بقوله:

[انتهيت من دراسة الدكتوراه وأنا أشعر شعورًا واضحًا بمنهج المسلم فى الحياة، وهو منهج "الاتباع". إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كلمه موجزة عن هذا المنهج وهى إعجاز من الإعجاز، إنه صلى الله عليه وسلم يقول:

"اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم".] [٢]

قدم الشيخ لتلك الرسالة عن الحارث بن أسد المحاسبى بمقدمة غاية

(١) الحمد لله هذه حياتى، ص ١٢٦، وشيخ الإسلام عبد الحليم محمود ص ٦٦٠.

(٢) الحمد لله هذه حياتى ص ١٧٨.

فى الأهمية، وقد نقلها فى كتابه "الحمد لله هذه حياتى" ننقل منها هـذا القدر، ففيه بيان جلى للوسطية التى اكتسبها الشيخ الإمـام مـن وسـطية الإسلام التى ميزته عن سائر الديانات والملل والنحل، والتى ستتسم بهـا حياته وأعماله.. قال:

[يتسم التاريخ- سياسيًا كـان أو فكريًـا- بفـترات تبدو فيها الحيوية الجارفـة، وهـذه الحيويـة تتركـز فـى شخص أو أشخاص نابغين، يلقون بأنفسهم فى مجرى الحياة الهادئ الوديع، فتضطرب الحياة وتمـوج، ويعلـو موجها وينخفض، وتصـطرع القوتـان- قـوة الشـعب الذى يتبع التقاليـد، وقـوة المصـلحين النـابغين- فـترة تطول أو تقصر، ثم تنحسر الأمـواج، وتهـدأ الأمـور، فإذا بالحياة تأخذ لونًا جديدًا، وإذا بالقيم قـد تغـيرت، فى قليل أو فى كثير.

ومهما يكن من شىء، فإن عظماء الرجـال- علـى أى وضع قضوا نحبهم- لا يتركون هذا العالم إلا وقـد تركوا أثرًا لا ينمحى أبد الدهر.

وقد ينشأ النابغة، فيجد نفسه فـى ميـدان المعركـة، مختارًا أو مضطرًا، وتشـرع نحـوه الأسـنة، وتتجـه إليـه السيوف المهندة، فيدافع، ويهاجم، ويَغلب، أو يُغلـب،

ويَترك- على كل حال- أثرًا.

ونشأ المحاسبى، وفى العالم الإسلامى قوتان هائلتان تصطرعان:

١ - أهل السنة، ويمثلهم الإمام أحمد بن حنبل.

٢- المعتزلة، ولهم ممثلوهم فى البصرة والكوفة وبغداد.

وهذا الصراع بين المعتزلة وأهل السنة: صراع طبيعى، لا يخلو من مثله دين من الأديان:

إنه الصراع الخالد بين النصيين والعقليين.

إنه النزاع الأبدى بين الذين يقولون: إن الدين نص تفسره أسباب النزول واللغة والرواية، والذين يقولون إن الدين نص يفسره العقل ويوضحه.

ويظن بعض الناس- للوهلة الأولى- أنه لا يمكن أن يكون هناك طرف ثالث فى هذه الخصومة: فالإنسان إما نصى، وإما عقلى، ولا يحتمل الأمر حلاً ثالثًا.

ونشأ المحاسبى ليعلن هذا الحل الثالث.

لقد هاجم المعتزلة هجومًا عنيفًا، وألف كتابًا خاصًّا كان من بين أهدافه الرد عليهم، سماه "فهم القرآن".

لقد رأى فى نزعتهم العقلية طغيانًا لا يتناسب ومقام العبودية، ورأى أن نزعتهم تحكِّم العقل فى القرآن، وتجعله يسيطر على النص، ولو كان الأمر كذلك لكان القائد فى الحقيقة وواقع الأمر: هو العقل لا الكتب المقدسة.

وإذا كان المعتزلة قد خدموا الدين خدمات جليلة، تتمثل فى دفاعهم المجيد عنه، ورد هجمات أعدائه، وتأييده منطقيًا وعقليًا، فإنه مما لاشك فيه: أن العقل لو ترك وشأنه لا يمكنه أن يتسلل إلى عالم "ما وراء الطبيعة" فيفسر لنا غامضه، ويوضح لنا من أمره ما انبهم.

لابد إذن أن يخضع العقل للنص.

ومذهب المعتزلة إذن، لايسير فى عالم "ما وراء الطبيعة" على النهج الصواب.

هناك إذن: إفراط وتفريط.

والعبودية الحقة -فيما يرى المحاسبى- هى المنهج الصحيح للوصول إلى المعرفة الحقة..

ودخل المحاسبى المعركة، وسلاحه فيها: عبودية حقة، وإخلاص لاحد له، وتقوى تغمر كل الجوارح،

ومن قبل ذلك ومن بعده: دراسـة مستفيضـة للـدين: وسائله، وغاياته، جزئياتـه، وكلياتـه، التقـوى والعلـم إذن كانا سلاحه فى المعركة.

واحتدم النزاع، وكـان لابـد مـن أن يحتـدم، وثـار الفقهاء على المحاسبى؛ وكان لابد أن يثوروا، فقد كـان المحاسبى يـنهج فـى درسـه منهجًـا آخـر غـير الطريـق العادى التقليدى.

كان يتحـدث فـى الإخـلاص، فـى الـورع، وفـى الزهد، وفى الخشوع الخالص لله.

وكان يتحدث فى هيبة الله، وجلاله وعظمته.

وكان يتحدث فى محبة الله، والأنس به، والقرب منه.

وكان حديثه عذبًا، طلقًا، ساميًا، فكانت تخشـع لـه الأفئدة، وتلين له القلوب، وتسيل له الدموع، ويتـذكر الناس ما لله مـن فضـل، فـترق قلـوبهم، ويتعاهـدون على الاستقامة.

وملأت سمعة المحاسبى أرجاء بغـداد، ثـم عبرتهـا إلى جميع أرجاء المملكة الإسلامية المترامية الأطـراف، وكلمـا أخـذت شـهرته فـى الازديـاد، كثـر خصـومه وشانئوه!!!

ولكنه كان يسير فى طريقه ثابت الخطى، لا يعنيه سوى أن يكون الله راضيًا عنه!!

وتكشفت له الحجب، وزالت عنه المساتير، ووصل إلى المعرفة الحقة، فأعلن طريقها.

وطريقها ليس حسًّا يخطىء، وليس عقلاً يضل، وإنما هو: بصيرة وضاءة، وروح صافية.

واستمرت الخصومة بين النصيين، ويمثلهم الإمام، "أحمد"، والبصيريين ويمثلهم الإمام المحاسبى، والعقليين ويمثلهم المعتزلة.

ومن غريب الأمر: أن أية قوة من هذه القوى لم تخرّ صريعة، بل بقيت قوية، واستمرت فى كفاح ونضال، حتى يومنا هذا.

تسلسلت فكرة المحاسبى، وتمثلت خير تمثل فى الإمام "الغزالى"، ثم فى بقية الصوفية من بعده حتى كان العصر الحاضر، فكان يمثلها فى أسلوب جديد، وتعبير صادق، المرحوم: الشيخ "عبد الواحد يحيى"(*)،

(*) فيلسوف فرنسى اعتنق الإسلام وأقام بمصر وتزوج بها وله مؤلفات. انظر الفصل الخاص به فى كتاب المدرسة الشاذلية للدكتور عبد الحليم محمود، طبع دار المعارف بمصر.

الذى توفى فى بداية النصف الثانى من القرن الحاضر.

وتسلسلت فكرة الإمام "أحمد"، فتمثلت فى الإمام: "ابن تيمية" الذى وضع لها المنطق، وأرسى لها القواعـد والأصول، واستمرت قوية إلى عهدنا الحاضـر، وكـان يمثلها المرحوم: "الشيخ رشيد رضا" تمثيلاً قويًا.

وتسلسلت فكرة المعتزلة، راكدة حينًا، وقوية حينًـا آخر، حتى كان "جمال الدين الأفغانى"، فدفعها دفعًـا قويًّا إلى عالم الظهور.

وكان "الشيخ محمد عبده" من أهـم العوامـل فـى نشرها، ملطفة خفيفة تكاد تخفى، أو تكاد تلبس ثـوب السلفية.

وحمل اللواء من بعده، المرحوم: "الشيخ المراغـى" والمرحوم: "الشيخ مصطفى عبد الرازق".

وفكرة "الإمام محمد عبده" تتمثل فيهمـا حقيقـة، لافى الشيخ "رشيد رضا"، كما يظن كثير من الناس.

لاتزال تلك القوى الثلاثـة تتصـارع حتـى عهـدنا هذا، ونعتقد أنها ستستمر، ذلـك: أنهـا تمثـل نزعـات فطرية فـى بنـى الإنسـان: فبعضـهم واقعـى يتجـه إلى النص، ولا يريد، أو لا يمكنه، أن يسير إلى أبعد منه.

وبعضهم يحتفظ بشخصيته، قوية جارفة لاتلين، فهو عقلى أو اعتزالى.

وبعضهم: رقيق الشعور، مرهف الحس، ملائكى النزعة فهو بصيرى أو صوفى.

نزعات ثلاثة، تقوم على فطر مختلفة، وهذه الفطر ستستمر فى بنى البشر، ما دام على وجه الأرض أفراد من النوع الإنسانى.

ومن هنا كان خطأ هؤلاء الذين يحاربون التصوف، أو الاعتزال، أو النصيين، على أمل أن يقضوا على اتجاه من هذه الاتجاهات.] [1]

تعرف الشيخ على التصوف -إذن- من باب الفكر والعقل، والمقارنة بين شتى الفلسفات والمدارس الفكرية والدينية.. وانتهى -كما انتهى من قبل الإمام أبى حامد الغزالى- إلى أن التصوف هو لب لباب الإسلام، وجوهره وحقيقته.. وسيكون التصوف من الآن هو طريقه فى الحياة، وصراطه المستقيم!.

❋ ❋ ❋

(١) الحمد لله هذه حياتى ص١٢٦- ١٣٠.

العـودة إلى مصــــر

عاد الشيخ إلى وطنه مصر وهو أكثر تمسكا بدينه.. واعيـا لرسـالته.. متمسكا بمفرداته ومؤسساته.. وزادت معرفتة بأهميـة الأزهـر الشـريف، وصار أكثر إيمانا بدوره العظيم فـى ترشـيد حيـاة المسـلمين، فـلا يوجـد مكان فى الدنيا يشبه الأزهر أو يعوِّض عنه.

يصف فضيلة "الأزهر" بقوله:

[إنك فى الأزهر تعيش فى جو الإيمان، وفى جـو العلم، وفى تاريخ عريق كله يدور حول العلم.

وإنك فى جو الأزهر تعيش فى جو من الجهاد ساد طيلة عشرة قرون، حفظ على الأمة لغتها، وحفظ عليها تراثها النفيس، وحفظ عليها وعيها الدينى.] (١)

هـذا هـو إحساسـة بـالأزهر الـذى دفعـه لأن يجعـل الحفـاظ عليـه وإصلاح ما فسد فيه قضية أساسية من قضايا حياته وجهـاده فـى سـبيل الله.

فى عام ١٩٤٢م كتب ثلاثة تقريـرات حـول علـم الفلسـفة وعلـم النفس وعلم تاريخ الأديان وقدمها إلى القائمين علـى الأزهـر يومـذاك،

---

(١) الحمد لله هذه حياتى ص ٨٩.

وقد استحسنها الشيخ عبد المجيد سليم وكان -يومئذ- مفتيا للديار المصرية، مع ما كانت تتسم به من شدة.

وبعد عامين كتب مذكرة شاملة فى إصلاح الأزهر وطبعها طباعة جيدة وجعل لها عنوانًا ينذر بالخطر وهو "الأزهر فى دور الاحتضار" اشتملت على عدة نقاط منها:

- كيف ترجع إلى عالِم الأزهر مكانته وكرامته؟
- كيف تفهم إدارة الأزهر وقيادته حقيقة الرسالة المنوط بها؟
- كيف يمكن إصلاح الخطة التعليمية فى كلياته؟

وقدّم هذه المذكرة إلى قيادات الدولة أيضا، ولكن هذه المذكرة قوبلت من قيادات الأزهر بالاستهجان، وقُدِّم بسببها إلى المحاكمة"[١].

والمثل يقول: ليست النائحة الثكلى كالمستأجرة!

ليس شيخ الأزهر الذى يحمل همّ الأمة، وهمّ الإسلام، وهمّ الأزهر، كمن هو موظف لدى الدولة لا يبالى إلا بأداء مهام وظيفته لإرضاء من هو موظف لديهم.

استمع إلى الحرقة التى يتكلم بها الشيخ.. والغيرة الصادقة على مكانة الأزهر ومن ينتسب إليه من العلماء، وغضبه على ما آل إليه حال كثير منهم.. يقول فى تلك المذكرة:

---

(١) انظرتفاصيل ذلك فى "شيخ الإسلام عبد الحليم محمود" ص ٤٩ – ٥٣.

[إن هـذا الأزهـرى الـذى كـان يجـب أن يكـون شعاره الإيمان الراسخ، والثقة بالله، والتحمس للدعوة الإسلامية، والصـمود ضـد الباطـل، والتضـحية فـى سـبيل الحـق، والـذى كـان يجـب أن يكـون هاديـا ومرشدا، وداعيا إلى الله، ومبشرا، ونذيرا، والذى كـان يجب أن يزلزل الجبال إذا شاء.. أصبح هـذا الأزهـرى وكل همه أن يتكفف النـاس علـى أبـواب الـوزارات ليستجدى رحمة القلوب.. لينال ما يسمى بالوظيفة..

أين هـذا مـن رجـل الله الـداعى إلى الحـق، ومـن أصـفياء الله الـذين يـنيرون السـبيل أمـام البشـرية الضالة؟..

أين هذا من هؤلاء الذين تبعث ثقتهم فى الله الثقة فى نفوس الضعفاء، وأملهم فى الله الأمل فى نفـوس اليائسين، ورجاؤهم فى روح الله الرجـاء فـى نفـوس القانطين؟..

أين هؤلاء من أولئك؟.. أو أين علمـاء اليـوم ممـا ينبغى أن يكون عليه العلماء الصادقون؟..] [1]

* * *

(١) راجع "شيخ الإسلام عبد الحليم محمود" ص٥٠.

الاستقامة

إنك أيها القارىء الكريم إذا أردت أن تبحث عن كلمة واحدة تتلخص فيها حياة الشيخ الإمام، لكانت هذه الكلمة هى: "الاستقامة"..

والاستقامة كما قال سلفنا العارفون بالله: هى أعظم كرامة. ولسوف نراها – فى رحلة حياته – كالخط الواضح المستقيم الذى لا ينثنى، ولا يخفت وضوحه مهما تغيرت الأحوال وجدّت الظروف.

* * *

بعد عودته من فرنسا عُيِّن مدرسًا لعلم النفس بكلية اللغة العربية.

وفى عام ١٩٥١ نُقل إلى كلية أصول الدين أستاذًا للفلسفة.

وبعد ثلاثة عشر عامًا عُيِّن عميدًا لكلية أصول الدين سنة ١٩٦٤.

وفى سنة ١٩٦٩ عُيِّن أمينا عامًا لمجمع البحوث الإسلامية.

وفى سنة ١٩٧١ عُيِّن وزيرًا للأوقاف وشئون الأزهر، وبقى فى الوزارة سنتين ثم عُين شيخًا للأزهر عام ١٩٧٣[١].

* * *

(١) شيخ الإسلام عبد الحليم محمود ص ٦٦٠.

الفصل الثانى

شيـــخ الأزهــر



ثقل المسئولية

رأينا فيما مضى كيف كان مهموما بالأزهر..

هذا الصرح العلمى العظيم.. كيف يُستنهض من جديد حتى يقوم بأداء دوره الذى لا يقوم به سواه..

عندما تولى المنصب الكبير -"شيخ الأزهر"- لم يكن بالنسبة له مغنما ولا جاها.. ولكن تعب بالليل والنهار.. وشعور ضاغط بثقل المسئولية التى ألقيت على كاهله..

ومن شعر بثقل المسئولية بصدق، أتاه العون والتوفيق من الله يسابق بعضه بعضا!.

كان دوره هو التنبيه إلى أهمية الأزهر.. وواجب المسلمين فى الحفاظ عليه، والذب عنه ضد المؤامرات التى تهدف إلى هدمه والتخلص منه. ويصور واقعا مريرا عانت منه الأمة، ولا تزال.. فيقول:

[والواقع أن هناك عوامل كثيرة تكاتفت على النزول بالأزهر عن مكانته.. ومن أهم هذه العوامل هذا الاستعمار وهذا التبشير..

وبدأت عوامل الهدم. بدأت السخرية بعلماء

الأزهر.. فى التمثيليات وفى الأفـلام وفـى الصـحف وفى المجلات..] [١]

ويتكلم بكلام كأنه قاله اليوم ونحن فـى سـنة ٢٠١٥.. لأن ذلـك الواقع الأليم المرير لا يزال مستمرا إلى الآن، فيقول:

[إن لكـل بلـد مقدسـات.. وهـذه المقدسـات لا تمس. أليست العقيدة من المقدسات التى لا تمس؟..

إن المنحـــرفين عقـــديا، والمنحـــرفين أخلاقيـــا، والمنحرفين اجتماعيا، على اختلاف ألوانهم يسـرحون ويمرحون كيفما شاءوا فى الأقطار العربية، فلا يجدون من يردعهم.

وتتكـاتف الأقـلام المـأجورة، والأفـلام المنحرفـة، ووسـائل الإعـلام، فـى العمـل علـى التشـكيك فـى العقيدة والقـيم الأخلاقيـة والتشـريع الربـانى، ونشـر التحلل الأخلاقى بكل الطرق.] [٢]

ويضرب لذلك أمثلة ظـاهرة، مشـيرا إلى دور اليهـود فـى إفسـاد العالم حيث يقول:

---

(١) راجع "شيخ الإسلام عبد الحليم محمود" ص ٣٧٢ – ٣٧٩.

(٢) راجع "شيخ الإسلام عبد الحليم محمود" ص٣٧٣.

[رتبوا نجاح كل مفسد، ونشروا كل موبقة، ودعوا إلى كل انحراف، وفعلوا ذلك عن تخطيط هو إفساد الإنسانية ليسودوا من وراء ذلك، ويتمكنوا، ويسيطروا على العالم".

ووقف الأزهر فى وجه ذلك، وقف كالطود الراسخ يدافع عن الذاتية الإسلامية..] (١)

* * *

مكانة الأزهر

فى كتابه "أبو البركات سيدى أحمد الدردير" أشار الشيخ إلى مكانة الأزهر التى حظى بها إلى عهد ليس ببعيد، حيث كانت له القيادة الفعلية لجماهير الأمة.. وكانت له الأموال التى يستغنى بها عن غيره، من أوقاف المسلمين.. كانت له ولرجاله المكانة السامية التى استمدوها من تقديم الله على ما سواه.. يقول فى ذلك:

[كيف كانت مكانة الأزهر فى عهد الإمام الدردير -شيخ مشايخ المالكية- وكيف كان وضع شيخ الأزهر؟

---

(١) راجع "شيخ الإسلام عبد الحليم محمود" ص ٣٧٧.

لقد كان منصب شيخ الأزهر -إذ ذاك- له جلالة، وله قداسته. لقد كان يمثل فى مصر الخلافة، وقد كان شيخ الأزهر يعرف للمنصب حقه، وكان يشعر بأنه أب لجميع المسلمين.. وكان الشعب يلجأ إلى أبيه إذا نزلت به نازلة، وكان الحكام يلجأون إلى شيخ الأزهر فى أمورهم الخطيرة..

لقد كان العلماء إذ ذاك يستيقظون قبل الفجر، يتعبدون ويتهجدون، ويبدأون الدراسة بعد صلاة الفجر مباشرة، يبدأونها على طهر وروحانية.. وكان شيخ الأزهر دائما من العُبّاد..] (١)

ونبه إلى رفعة مقام شيخ الأزهر، وكذلك المنتسبين إليه من العلماء الذين يجب أن يرفعهم انتسابهم للأزهر عن أمور الدنيا والمنافسة فيها.. فيقول:

[وكان علماء الأزهر، وكان شيخه، عازفين عن دنيا يتكالب عليها الناس، وعن رئاسات يجرى وراءها الكثيرون.

---

(١) أبو البركات سيدى أحمد الدردير، د. عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ص٦- ٨. باختصار.

خذ مثلا الشيخ عبد الرحمن الشربينى الخطيب، لقد عرضت عليه مشيخة الأزهر، فأبى، فعرضت على غيره من العلماء فلم يقبلها واحد منهم، وعلل كل منهم امتناعه عن القبول بأن الشيخ الشربينى أحق بها منه...] (١)

وينبه الشيخ إلى ضرورة أن يعمل العلماء بالعلم.. فهذا هو مقصود العلم، لا نيل المناصب والرتب.. ولما كان العمل بالعلم هو حقيقة التصوف، فإنه يختم ترجمته للإمام الدردير بقوله:

[وبعد.. فإن الإمام الدردير لو بقى على علوم الكتب فإنه ما كان يزيد على هذا أو ذاك ممن كان فى عهده، أو ممن سبقه، أو أتى بعده ممن طواهم الزمن دون أن يخلدهم التاريخ، ولكن أساس الخلود فى أمر الشيخ الدردير إنما هى هذه الروح التى بثها فى الأتباع والمريدين، والتى ما زال يبثها فى أتباعه ومريديه.

إنها الروح الصوفية، والشعور الصوفى،

(١) أبو البركات سيدى أحمد الدردير، ص١٠.

والطريقة الصـوفية التـى مثلـها، والتـى يمثلـها إلى الآن، والتـى سيسـتمر يمثلـها مـا بقيـت السـماء والأرض: روح الإخــلاص، روح: إيــاك نعبــد وإياك نستعين، روح الربانية.] [١]

ثم يتكلم بحرقة عن أوقاف الأزهر التى انتُزعت منه ليصبح عالة على الدولة.. فيقول:

[لم يكن فى ذلك الوقت شيخ الأزهر عالة على الحكومة، وذلك أن الأزهرحفظ على الأمة لغتها وإيمانها، فوفت له الأمة من أجل ذلك بإجلالها واحترامها، وبأوقاف كثيرة وقفتها عليه..

وكان الأزهر يعيش فى حدود أوقافه كريم النفس، رافع الرأس..

وأخذ الحاكمون فى عصر دولة محمد على يحتالون للأمر حتى أمكنهم بالمكر والخديعة أن يستولوا على أوقاف الأزهر، ويعطوه مالا من خزينة الدولة..

---

(١) أبو البركات سيدى أحمد الدردير، ص٦١.

وأصبح الأزهر فى ضيق يزداد ضيقا كل عام..

ولا بد من رد مال الأزهر إليه حتى تكون البركة ويكون النماء ويكون الخير، وهذه الأوقاف ثابتة فى حجج.. محفوظة..

هل من محبين للأزهر يعاونون على رد أوقافه إليه؟ هل من محتسب يبدأ؟ لعل وعسى، والخير فى الناس ما زال باقيا.] [1]

* * *

تعليق

كنت قبل عام تقريبا قد سألت فضيلة الدكتور على جمعة عن أوقاف الأزهر، فأخبرنى بأنها أصبحت قليلة جدا وأن حاجات الأزهر الآن قد فاقتها بكثير..

ولعل الله سبحانه وتعالى يوفق إلى أوقاف جديدة.. أو نظام جديد يعيد للأزهر استقلاله المالى والإدارى عن الدولة.. ويعود مرة أخرى قبلة المسلمين فى الدنيا كلها، والمنافح باقتدار عن قضايا الأمة كلها..

* * *

(١) أبو البركات سيدى أحمد الدردير، ص٨- ١٠. باختصار.

التضييق على الأزهر

وصف الدكتور رءوف شلبى ما تم من إجراءات لتكبيل الأزهر بواسطة قانون الأزهر رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ الذى نص على وجود وزير لشئون الأزهر مما وضع الأزهر وشيخه تحت وصاية الحكومة وذلك الوزير المختص..

كان شيخ الأزهر آنذاك الشيخ شلتوت الذى ظن أن الحكومة قد عينت له سكرتيرا بدرجة وزير يتولى تسيير الأمور التى يكلفه الأزهر بها فى مجلس الوزراء ودوائر الحكومة، لذلك وافق على القانون..

فلما تبينت له حقيقته وهى أن القانون سلب اختصاصات شيخ الأزهر ووضعها فى يد الوزير، وصدر قرار جمهورى بذلك، ونُشر فى الجريدة الرسمية فى يناير سنة ١٩٦٣.. قدم استقالته فى نفس الشهر، واعتكف فى بيته "بعد أن أرسل خطابا قاسيا إلى جمال عبد الناصر، يحمله تبعة ما حدث فى الأزهر بتاريخ ٢٠ يناير" من نفس العام. [(١)]

فلما تولى الشيخ الإمام مشيخة الأزهر كانت تلك القضية من أهم القضايا التى تصدى لها ليعيد للأزهر مكانته ودوره فى حياة الأمة..

يقول بمرارة:

(١) شيخ الإسلام عبد الحليم محمود، ص٣٠٨.

[والذى أحب أن أقوله أيضًا إن الأزهر فى محنته الحالية لا يجد من يأخذ بيده.

وفى مصر - والحمد لله - من المؤمنين النابهين الكثير، ولكنهم انصرفوا فى إهمال غير شاعر، أو فى نوع من السلوك اللاشعورى عن الأخذ بيد الأزهر والحدب عليه، وهم بذلك آثمون.

وأحب أن أعلنها سافرة وأقول: إذا تكاتف المبطلون على النيل من الأزهر فى الإذاعة، أو فى التليفزيون، أو فى الصحف، أو فى ميزانيته، أو فى سيره فى نهضته، فإنه يجب أن يتكاتف الخيرون على أن ينصروه مجاهدين بذلك فى سبيل الله، فإذا لم يفعلوا ذلك فهم آثمون: آثمون فرادى، وآثمون جماعات.

ما هو الأزهر؟

إنه الممثل للإسلام، القائم على نشره.

إنه رمز الإسلام، فإذا أهين رمز الإسلام أو نيل منه فإن على هؤلاء الذين يشعرون بالإسلام يملأ جوانحهم أن يهبوا مدافعين عنه، وهم بذلك إنما يدافعون عن الإسلام وينصرونه.

وهؤلاء الـذين يمـلأ حـب الـوطن أفئـدتهم يجـب عليهم أن يأخذوا بيد الأزهر لأنه هو الذى مكن لمصر أن تحتل مركز الزعامة بين الدول الإسلامية.

أما أبناء الأزهـر فيجـب علـيهم أن يمثلـوا الأزهـر خير تمثيل: سلوكًا وعلمًا، وكل من حـاد - مـن أبنـاء الأزهر - عن الاستقامة سلوكًا وعلمًا فإنه فـى مقـت الله وفى غضبه، وإثمه عند الله أكثر من إثم غيره.][1]

* * *

كان الشيخ -رضى الله عنه- هينا لينـا، خـافض الصـوت، رقيـق السمت، ممن يمشون على الأرض هونا..

وهكذا كـان الصـديق الأكـبر أبـو بكـر رضـى الله عنـه.. رقيقـا، رحيما، خافض الصوت، منكسرا.. ولكن عندما وقعت الأحـداث التـى زلزلت الرجال.. كان أشدهم رسوخا وثباتـا، حتـى قـال الصـحابة أيـام حروب الردة: لقد وقفنا بعد رسول الله- صلى الله عليه وسلم- موقفـاً كدنا أن نهلك فيه لولا أن مَن الله علينا بأبى بكر ...

وهكذا فى كل زمان– فى هذه الأمة المرحومة- يقيم الله رجالا لا تتزلزل أمام المخاطر دفاعا عن الحق.. ودرءا للباطل الذى يستشرى..

(١) شيخ الإسلام عبد الحليم محمود، ص٣٧٨.

فبينما الشيخ فى جهاده بكل وسيلة هينة.. لينة.. رفيقة.. من أجل استرجاع حقوق الأزهر المغتصبة.. إذ وصل إليه فى مكتبه القرار الجمهورى رقم ١٠٩٨ لسنة ١٩٧٤ الذى وصفه الدكتور رءوف شلبى بقوله:

[صار كل شىء فى الأزهر بعد هذا القرار ميتا، وصارت الوزارة هى كل شىء فى تحقيق رسالة الأزهر، ومسخ الأزهر نهائيا، وبات مشلولا.] [(١)]

فما كان منه إلا أن قدم استقالته فى غير ضوضاء ولا مظاهرات.. وكان ذلك فى شهر يوليو سنة ١٩٧٤.

يقول الدكتور رءوف:

[وإنه لمن الحق أن أقرر أن الإمام الأكبر –رضى الله عنه– قد كتب استقالته بيده، وتوجه وحده إلى القصر الجمهورى، وسلمها إلى المسئولين، ولم يعلم أحد قط بها، وليس فى ملفات المشيخة صورة من هذه الاستقالة، كما أن أحدا لم يعرف الوقت الذى ذهب فيه الشيخ إلى رئاسة الجمهورية..] [(٢)]

---

(١) شيخ الإسلام عبد الحليم محمود، ص٣١٢.

(٢) شيخ الإسلام عبد الحليم محمود، ص٣١٦.

ولم يكتف الإمام بهذا..

بل راح يكتب الرسائل إلى المسئولين بالدولة يشرح فيها سبب الاستقالة، مبينا خطورة الوضع الذى أدى إليها..

يقول فى أحدها:

[وأخيرا.. فإنه إزاء الوضع الذى أنشأه القرار الجمهورى المذكور، والذى لم يكن قائما عندما قبلت منصب شيخ الأزهر..

وإزاء مسئوليتى التى تحتم على العمل على الارتفاع بقيمة الأزهر ومكانة شيخه.. وتحتم على رفض إجراء يحط من هذه القيمة أو تلك المكانة.. ويهبط بمستوى الأزهر، ويعجزه عن أداء رسالته والقيام بمسئولياته..

وإزاء شعورى بأن الاستقالة هى الإجراء الوحيد الذى أملكه للتنبيه على خطورة الوضع الذى سوف يتردى فيه الأزهر من جراء تنفيذ القرار المذكور.

فإننى كنت وما زلت مستريح الضمير إلى أننى باستقالتى التى قدمتها للسيد رئيس الجمهورية قد أديت واجبى أمام الله..

وبذلت غاية وسعى فى تأدية الأمانة التى حملتها

يوم قبلت منصب شيخ الأزهر.] [١]

وفى أوائل شهر ديسمبر من نفس العام قابل الرئيس الإمام الأكبر، وطلب منه العودة لمنصبه على أن تصدر اللائحة التنفيذية المنظمة لحقوق شيخ الأزهر..

[وعاد الإمام الأكبر فى يوم الاثنين ٢٥ من ذى القعدة ١٣٩٤هـ، الموافق ٩ من ديسمبر سنة ١٩٧٤.
عاد وسط حشود تزفه من مسجد الإمام الحسين -رضى الله عنه- إلى الأزهر الشريف، وعلى مشهد من التاريخ بأوبة مكانة الأزهر إلى وضعها الطبيعى.][٢]

* * *

بعض إنجازاته ومواقفه

- أحيا للأزهر مكانته ووظيفته، وأعاد له بعض بهائه ورونقه.

- نشر المعاهد الأزهرية فى جميع ربوع مصر، ومكاتب تحفيظ القرآن.

- جعل التعليم الأزهرى العالى قريبا من المحافظات، ونشر كليات الأزهر بالأقاليم.

(١) شيخ الإسلام عبد الحليم محمود، ص٣٣٣.

(٢) شيخ الإسلام عبد الحليم محمود، ص٣٤٥.

- وحرصا منه على بث روح الرجولة والتضحية والجهاد فى شباب الأزهر حوّل بعض المعاهد الثانوية إلى معاهد عسكرية.. تكون الدراسة بها داخلية، حتى تمهد للالتحاق بالكليات العسكرية عن طريقها..

- قنن الشريعة.. تيسيرا للقضاة إذا أرادوا الاطلاع عليها والاحتكام إليها.

- قنن الأحكام فى الحرابة، والردة، والسرقة، والزنا، والقذف، والشرب.. لتحل محل القانون الوضعى..

- وقى الرسم العثمانى للمصحف الشريف من محاولات التحريف أو التصحيف، بما بذله من جهد فى تحقيق الرسم العثمانى، وفى طباعة المصحف، بحيث صار للأزهر الشريف -رسميا- مصحفا هو العمدة فيما يتعلق بالرسم العثمانى والوقف والإملاء الخاصين به.

- دافع عن الإسلام بكل ما يملك من قدرة ضد الهجوم عليه من قبل الشيوعيين والعلمانيين والمستشرقين والمبشرين.

- رفض مبدأ عمل كتب دينية مشتركة بين الإسلام والمسيحية، إذ كيف يجتمع التوحيد والتثليث.. على الرغم من أن فكرة تلك الكتب كانت بإيعاز من رئيس الجمهورية.

- وقف بحسم فى وجه قانون الأحوال الشخصية الذى قدمته الحكومة لمجلس الشعب دون الرجوع إلى مشيخة الأزهر، والذى كان

مخالفا للشرع الشريف، فلما علم به الشيخ كتب بيانا شديد اللهجة حذر فيه من الخروج على تعاليم الإسلام، وأرسله إلى جميع المسئولين، وإلى جميع أعضاء مجلس الشعب، وإلى الصحف.. قال الأستاذ على عبد العظيم: "وصدرت التعليمات إلى الصحف بالامتناع عن نشر هذا البيان، واجتمع الوزراء لينظروا فى هذا البيان، واضطرت الحكومة أمام إصرار الإمام الأكبر على أن تعلن أنه ليس هناك تفكير على الإطلاق فى تعديل قوانين الأحوال الشخصية الآن". [١]

- سما بمنصب شيخ الأزهر إلى المقام اللائق به، وأكد- عملا لا قولا- أن شيخ الأزهر يمثل المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها..

- دافع عن القدس الشريف دفاعا شديدا فى مختلف المحافل.

- سافر إلى أقطار العالم الإسلامى، يسعى إليهم ليتعرف على أحوالهم، وليحل ما يمكنه حله من مشكلاتهم.. وقد أثر كثيرا -فى هذه الزيارات- فى يقظة الحركة الإسلامية..

- ولم يبق أمامه إلا أن يضع دستورا إسلاميا تحتذى حذوه كل بلد إسلامى يريد أن يقيم حياته التشريعية على أساس من دستور إسلامى.. فكان هذا الدستور.. وكان خاتمة أعماله المجيدة.. فقد انتهى الدستور

---

(١) مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن، على عبد العظيم، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٨، ص٣٨٨و ٣٩٣.

طباعة يوم ١٥ أكتوبر سنة ١٩٧٨، وكانت وفاته –رضى الله عنه يوم ١٧ أكتوبر من نفس السنة..

فكانت خير خاتمة لرجل عالمى فى ربانيته.. [١]

* * *

مؤتمرات الحوار بين الإسلام والمسيحية

مؤتمرات الحوار بين المسيحية والإسلام التى تدعو إليها الهيئات المسيحية الغربية تفتقد إلى نية صادقة فى إحداث تعايش حقيقى بين أبناء الديانتين.. إنما هى جزء من السياسة الإستعمارية..

ولقد دُعى الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود إلى واحد من تلك المؤتمرات، فأجاب رسالة الدعوة بالرسالة التالية التى تبين أى صنف من الرجال كان –رضى الله عنه–.

نص الرسالة

السيد المحترم ......

تحية طيبة وبعد.. فقد وصلنى خطابكم المؤرخ فى أبريل سنة ١٩٧٨م، وإنى أشكر لكم هذه الرغبة فى التفاهم بين المسلمين والنصارى، وإثراء الفكر المعاصر بالحلول التى أوحاها الله تعالى إلى

(١) شيخ الإسلام عبد الحليم محمود، ص٥٧٠. والإمام الربانى، ص٢٢–٢٣. ومشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن ص٣٨٨– ٣٩٣، و٤٢١– ٤٢٢..

محمد وعيسى صلى الله عليهما، وذلك فيما يتعلق بالمشكلات المعاصرة، وقد وصلتنى أخبار المؤتمرين السابقين، وأحب أن أنبه -فى مودة، ومن أجل تفاهم عميق- إلى بعض الأمور:

١- إن الإسلام منذ أن بدأ خالف الجو العالمى اليهودى والوثنى فى أمر عيسى عليه السلام؛ لقد أعلن الإسلام مباشرة تقديره واحترامه لعيسى وأمه عليهما السلام، فهو وجيه فى الدنيا والآخرة، وأما أمه فهى صديقة، ووجود عيسى عليه السلام جزء من إيمان المسلم، وبراءة أمه وطهورها جزء من إيمان المسلم.

ولم يقف الإسلام من عيسى ومن أمه موقف اليهود الذين ما زالوا على موقفهم إلى الآن من عيسى وأمه، ولقد افتروا -وما زالوا- على عيسى وعلى أمه، ورموهما ببهتان شنيع. أما الإسلام فإنه مجدهما، وما زال مستمرا فى تمجيده لهما.

فماذا لقى المسلمون من النصارى مقابل ذلك؟؟

٢- إنه لا بد من الاعتراف بالدين الإسلامى وبرسوله حتى ينال المسلمون فى أوربا ما يناله اليهود من الاعتراف بأعيادهم وبشعائرهم، وإنه لا يتأتى التفاهم بين أتباع رسول يحترمه المسلمون، وهو عيسى عليه السلام، وأتباع رسول لا يعترف به النصارى وهو محمد صلى الله عليه وسلم.

٣- إن المسلمين والنصارى يعملون على مقاومة الانحراف والانحلال والمادية والإلحاد، وكان يجب أن يسيرا فى خط متعاون متساند ضد التيارات المنحرفة، ولكن -للأسف- يسير النصارى فى طريق تنصير المسلمين بقوة، فهم يعملون ليل نهار على أن ينصروا المسلمين فى كل مكان فى العالم، وكل الدول الغربية وأمريكا ترسل إرساليات لتنصير المسلمين بأسلوب مكشوف واضح، أو بأسلوب خفى مستور.

ويضيق المسلمون بذلك ضيقا شديدا، ورغم ذلك فإن ملايين الجنيهات تنفق فى سعة للتنصير بكل الطرق، ومما هو ملاحظ أن الدول الإسلامية ليس لها إرساليات تبشيرية.

وقد أرسل المسيح عليه السلام لهداية خراف بنى إسرائيل الضالة، ومع ذلك فإن النصارى تركوا خراف بنى إسرائيل الضالة وأخذوا يعملون على تنصير المسلمين، تساعدهم الثروة، وتساندهم وسائل الحضارة الحديثة، ولو حصروا نشاطهم على تنصير الوثنيين لما أثار ذلك ضيق المسلمين الشديد، وكراهيتهم للأسلوب ولموضوع التنصير نفسه.

٤- والمسلمون أقليات فى بعض الأقطار النصرانية مثل الفلبين، وهذه الأقليات المسلمة يُنكل بها باسم النصرانية: تؤخذ أرضها، وييتم أطفالها، وتترمل نساؤها، ولا تجد إلا ارتياحا فى نفوس الأغلبية النصرانية، ونحب أن ينتهى التنكيل بالمسلمين فى الأقطار التى بها الأغلبية النصرانية، ونحن نحب أن ينتهى ذلك دينا.

٥- وفى المؤتمرات التى تعقد فى أسبانيا وغيرها هناك أسلوبان للحديث:

الأول: التزام العقل، وهنا يتحلل المسلمون من مبادىء دينهم، فيتناولون المسيح عليه السلام وأمه بالأسلوب العقلى فيكون موقفهم منهما موقف اليهود، يقولون على مريم وعلى ابنها ما يضيق به النصارى ضيقا شديدا، ولكن المسلمين فى هذه المؤتمرات يتبعون مبادىء دينهم، فيحترمون المسيح عليه السلام وأمه.

أما النصارى فإن البعض منهم لا يبالى، فيتحدث عن رسول الإسلام بما يضيق به المسلمون، فلا تكون هذه المؤتمرات وسائل تفاهم، وإنما تكون وسائل تنافر، وذلك كما حدث فى المؤتمرين السابقين من بعض النصارى.

الثانى: إلتزام ما تمليه روح التفاهم، فلا يساء إلى المسلمين فى مقدساتهم. ونحن من جانبنا قد قدمنا أسس التفاهم واضحة سافرة: احترام المسيح عليه السلام، واحترام أمه عليها السلام. فماذا قدم النصارى؟ لا شىء.. بل على العكس من ذلك، لقد هاجموا وما زالوا يهاجمون رسول الإسلام ومبادىء الإسلام..

فهل يمكن مع ذلك التفاهم؟؟.

٦- وأحب أن أقول: إن الإسلام هو العامل الأكبر فى تثبيت النصرانية حين اعترف بوجود المسيح عليه السلام، وحين برأ أمه، ومع

ذلك فقد قوبل بجحود لا مثيل له. وما زال يقابل بهذا الجحود من النصارى على أكبر خدمة أديت للمسيح عليه السلام.

وبعد: فإنى أحب صادقا أن نتعاون فى صد كل انحراف، وأحب أن أقول إنه لولا تقديرى لكم لما كتبت لكم هذا، وإننى يسرنى أن أقرأ لكم، وسأتحدث إليكم عن رأيى فى موضوع المؤتمر فى المستقبل إن شاء الله تعالى، ولكم تحيتى وتقديرى". [١]

شيخ الأزهر
د. عبد الحليم محمود

* * *

مواقفه الوطنية

[يذكر د. أحمد عمر هاشم أن فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود كان مهتما بإسهام الأزهريين في معركة العاشر من رمضان، وأنه استعان في هذا الصدد بأساتذة جامعة الأزهر ورجال الدعوة لتعبئة الروح المعنوية لأبناء قواتنا المسلحة، وأنه عند لقاء العلماء بأبناء الجيش في شهر رمضان أثناء الحرب أفتى بعض الدعاة للجنود بأنه، نظرا لحرارة الجو وحاجة الحرب إلى كامل طاقتهم، من المستحب الأخذ برخصة الفطر لتكون عونا

(١) مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن ص ٣٤٨- ٣٥٠.

لهم فى الانتصار على العدو الصهيوني، بيد أن بعض الجنود أجابوا قائلين: لا نريد أن نفطر إلا في الجنة!

ويذكر د. هاشم أيضا أن الشيخ عبد الحليم محمود، قبيل حرب رمضان المجيدة، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام يعبر قناة السويس ومعه علماء المسلمين وقواتنا المسلحة، فاستبشر خيرا وأيقن بالنصر، وأخبر الرئيس السادات بتلك البشارة ، واقترح عليه أن يأخذ قرار الحرب مُطمئنا إياه بالنصر.

ثم لم يكتف بهذا، بل انطلق عقب اشتعال الحرب إلى منبر الأزهر الشريف، وألقى خطبة عصماء توجه فيها إلى الجماهير والحكام مبينا أن حربنا مع إسرائيل هى حرب في سبيل الله، وأن الذي يموت فيها شهيدٌ وله الجنة، أما من تخلف عنها ثم مات فإنه يموت على شعبة من شعب النفاق.

وقد تطرق إلى تلك الواقعة د. محمود جامع أيضا فى كتابه: "كيف عرفتُ السادات؟"، إذ كتب قائلا:

"لا ننسى أنه (أى الشيخ) بشرنا بالنصر في أكتوبر ٧٣ عندما رأى حبيبه رسول الله عليه الصلاة والسلام

في المنام، وهو يرفع راية "الله أكبر" للجنود ولقوات أكتوبر.] [(١)]

❋ ❋ ❋

إن روحًا قوية من الإخبات والإخلاص كانت وراء أقواله وأفعاله.. وصف الدكتور عزيز صدقى رئيس الوزراء الأسبق أثر هذه الروح بقوله:

[كان الشيخ عبد الحليم محمود أكثر شخص تحييه الجماهير فى جولاتنا بالأقاليم.. والجماهير تفهم وتستطيع أن تميز بين رجل الدين الصادق كعبد الحليم محمود، ورجل الدين المنافق للسلطة والذى يعمل فى خدمتها.] [(٢)]

❋ ❋ ❋

من أخلاقه وصفاته

كان الدكتور رؤوف شلبى ممن صحبوا الشيخ فى هذه الرحلة العلمية الطويلة منذ كان طالبًا يدرس على يديه فى كلية أصول الدين

---

(١) موقع ملتقى أهل التفسير، مقالة للدكتور إبراهيم عوض بعنوان: فصل من كتابى: عبد الحليم محمود صوفى من زماننا. بتاريخ ٣٠/ ١١/ ٢٠١٢.

(٢) الإمام النورانى الزاهد عبد الحليم محمود، د. عبد الغنى عبد الحميد رجب، ص٣٨.

سنة ١٩٥٣ إلى أن انتقل الشيخ الإمام إلى جوار ربه سنة ١٩٧٨.

صحبه طالبًا للعلم، ثم صحبه موظفًا فى مكتبه، يعمل له ويرتب أوراقه ويستقبل ضيوفه وينفذ أوامره، ويصحبه فى سفره(١) لذلك كان خير من يتكلم عن الشيخ ويصف دقائق شئونه.

يصف طريقته فى إدارة العمل بقوله:

[وللشيخ مفهوم فى الإدارة.. نابع من تصوره للقيم والأخلاق الإسلامية. إن الإدارة عنده:

- "إنما بُعثتم مُيسرين ولم تُبعثوا مُعسرين".
- "الراحمون يرحمهم الرحمن".
- "من كان فى عون أخيه كان الله فى عونه".
- "طوبى لمن كان مفتاحًا للخير، مغلاقًا للشر".

كان يشفق على الضعاف، ويعتذر عند الله للكسالى، ويقدر العاملين المكافحين، ويعفو عن المسىء، ويحسن إلى من يتوب.

وكان يقدر لكل شىء قدره، ويحسب له حسابه، ويتروى ويفحص، ويستشير كثيرًا، لكنه لا يحب أن تكون المشورة فى جلسة يجمع فيها الناس ليبدى كلٌّ

---

(١) شيخ الإسلام عبد الحليم محمود ص ١٤ و ص١٧.

رأيه، فإنه كان يعلم أن الآراء قد تكتنفهـا حساسـيات منها المجاملة، أو المخاصمة.

ولذا فإن المشورة عنده تؤتى ثمارها إذا أخذ الرأى من كل واحد على حدة.

وقد كانت مشـورته غريبـة ولا يـدركها كـثير مـن الخلطاء، فإنه كان يسأل الرجل عن رأيه فى أمر معين، ويسأل رجالا عن رأيهم فى هذا الأمر، ثم يعود يسأل السؤال نفسه لهؤلاء الأشخاص بأنفسهم ليعرف مدى ارتكاز الرأى على قاعدة فى عقلية المستشار.

فمن كان رأيه صـادرًا عـن قاعـدة فـى الـتفكير لم يتغير رأيه فى الأمر الذى سئل عنـه مـن قـديم، ومـن كان عاطفيًا يلقى الرأى جزافًا اختلف رأيه، وهنا يـزن الإمام الأكبر مقدار العقلية، ومـدى إمكـان الاعتمـاد عليها فى المستقبل.

ومن هنا يظهر عدم دقة من يظـن أن الشـيخ كـان ارتجاليًا فى بعض تصرفاته، فإن المسألة الواحـدة كـان يفكر فيها كثيرًا، وقد يطـول تفكـيره فـى حـل مسـألة معينة إلى عدة شهور.. لم تكن مشورته فى صورة لجان تدرس وخبراء يقدمون التقارير..

وصحبته فى السفر: قريبة وبعيدة، فكان كما هو فى حاله لايتغير فى منهاجه شىء. فهو يأوى إلى فراشه بعد صلاة العشاء توًّا، ثم يقوم إلى تهجده ليلا ما شاء الله له أن يصلى ويقرأ القرآن، ثم يصلى الصبح، ويأخذ فى قراءة أوراده وترتيل قرآن ربه.

ثم يستمع إلى الإذاعات العالمية، ويقرأ الصحف اليومية، ثم يبدأ فى الكتابة، فما كان ليترك الاطلاع أو التأليف، لا فى الحضر ولا فى السفر، ولا فى الطائرة، ولا فى الباخرة.. ثم يستقبل أعماله اليومية حسب برنامجه المرسوم فى السفر أو فى الحضر.

وكان يحيط كل مرافقيه بالعناية والرعاية والسؤال عن أحوالهم...] [1]

كان لا يرفض لأحد طلبا، ولا يخيب لمخلوق رجاء.. كان يؤمن أن للمنصب زكاة مثل زكاة المال، واجبة على من يتولى منصبا عاما يستطيع من خلاله خدمة الناس.. تقول شقيقته -رحمها الله- إنه منذ كان طفلا لم يُعرف عنه الكذب قط، ولا حتى فى معرض الدعابة، وأنه لم يقسم بالله قط..

---

(١) شيخ الإسلام عبد الحليم محمد ص ١٤ – ١٧.

وقال المؤلف فى كتاب "الإمام النورانى":

[قابل الصحفى والكاتب الكبير أحمد بهجت الإمام عبد الحليم محمود فى أروقة الإذاعة والتلفاز فى انتظار التسجيل. أحب الكاتب الكبير أن يقطع الوقت ويتجاذب أطراف الحديث مع الإمام، فسأله عن قضية خلق القرآن، فصمت الشيخ ولم يتكلم، فأعاد الكاتب السؤال بصيغة أخرى، فصمت الشيخ، ولم يتكلم أيضا.] (١)

* * *

مكرمة

كان للأخ والصديق الأستاذ إسماعيل سرى الدين قصة جميلة مع الشيخ الإمام.. تُلقى المزيد من الضوء على أحواله وأخلاقه.. وقد طلبت منه أن يكتبها لى، فلبى مشكورًا. فكتب يقول بأسلوبه الرشيق:

[اسمح لى أن أعود بك إلى الوراء قبل خمسة وأربعين عاما، وتحديدا سنة ١٩٦٤م، وكنت وقتها تلميذا فى مدرسة أحمد ماهر الإعدادية بالمنيل.

كان يدرسنا اللغة العربية أستاذ من طراز فريد فى

---

(١) ص٣٠.

إخلاصه وتمكنه وطريقة تدرسيه، وهو الأستاذ عبد العزيز العنانى، أكرمه الله، وكان يهتم بالمناسبات الدينية، وعلى سبيل المثال عندما قرب عيد الأضحى المبارك كلفنا ان نقوم بجمع قرش صاغ واحد أو نصف قرش من كل تلميذ بالمدرسة وذلك لكى نشترى خروف ونصلى العيد معا فى المدرسة ويقوم الأستاذ بنفسه بعملية الذبح الشرعى ليعلمنا إياه، ويكون بمثابة إحياء لسنة الأضحية ولسنة الذبح.

ذكرت هذا المثال ليوضح ماذا قصدت بوصفه أنه من طراز فريد.

أسس الأستاذ عبد العزيز جماعة دينية بالمدرسة والتحقت بها، ولمس فىَّ استعدادا للخطابة فكلفنى أن أقوم بإعداد خطبة دينية مختصرة وألقيها صباح كل سبت بالإذاعة المدرسية ارتجالاً.

وحيث إننا كنا فى موسم الحج طلب منى أن تكون الخطبة القادمة عن الحج..

خرجت من المدرسة يومئذ وفى ذهنى أن أحاول قراءة أى شىء أستعين به فى إعداد خطبة الحج، وإذا بى أجد خارج بوابة المدرسة مباشرة أحد باعة الكتب

والصحف وقد فرش مجموعة كتب على الرصيف.

لفت نظرى من بينها كتاب من الحجم الصغير اسمه "أسرار الحج فى الإسلام" ومؤلفه: الدكتور عبد الحليم محمود. وثمنه خمسة قروش، ومن حسن الحظ أن كان معى ذلك المبلغ فاشتريته فورًا وعدت إلى البيت الذى كان قريبا من المدرسة وكل ما يدور فى ذهنى هو أن أقتبس من هذا الكتاب ما يساعدنى فى إعداد خطبة الحج..

وبالفعل بعد أن توضأت وصليت وتناولت غدائى بدأت فورا فى القراءة..

وهنا كانت المفاجأة، لقد استغرقت فى القراءة ورحت أتنقل من صفحة إلى صفحة لعلى أجد ما آخذه للخطبة ولكنى لا أجد شيئًا أكتبه (وهذا بالطبع من شدة جهلى) غير أنى مشدود ومستغرق بالكلية حتى أنى لم أفعل شيئًا يومها سوى أن أقوم لصلاة الوقت وأستمر فى القراءة إلى أن أنهيت قراءة الكتاب كله فى تلك الليلة.

لم أجد ما أكتبه غير أن أحاسيس امتلأت بها جوارحى، ومشاعر تملكت قلبى ووجدانى لأول مرة،

لم أكن أعرفها من قبل، ومفاهيم أيقظت عقلى وفكرى ولا أعرف كيف أعبر عنها..

ولكنى عشت حالة روحية وكأنى كنت أحج مع الحجيج، أطوف معهم، وأسعى معهم، وأتوب معهم، وأبكى معهم، وأدعو معهم..

لقد تعلقت بالحج تماما (وبالفعل قد أكرمنى ربى بأداء الفريضة وأنا طالب فيما بعد)

لقد كان الموضوع كله: تلميذ أراد أن يكتب خطبة عن الحج، فى موسم الحج، فاشترى كتابا صغيرا عن الحج، ولم يجد فيه شيئا يكتبه عن الحج (وهذا من جهله طبعا)..

ولكنه تعلق بالحج، وبمن كتب هذا الكتاب عن الحج، وهو أقرب إلى الطفولة وربما لا يجيد التنقل بالمواصلات بمفرده فى عاصمة كبيرة مزدحمة كالقاهرة.

ولكنه راح يؤمل نفسه ويمنيها بلقاء من كتب هذا الكتاب، فراح يبحث عن اسمه فى دفتر التليفونات، وبالفعل وجد اسم عبد الحليم محمود ووجد عنوانه مكتوبا: ٢٤ شارع العزيز بالله، الزيتون، ولكن أين

هى الزيتون وكيف الوصول إليها؟؟؟ وراح يسأل عن المواصلات التى تذهب إلى هناك..

انتهى الكتاب ولم آخذ منه شيئا بقلمى، ولكنى أخذته كله بقلبى، وصرت أحبه من كتبه، وإن لم أره، ومنتهى أملى أن ألقاه، وأطلب دعاءه.

ولكن كيف؟

فإن كنت عرفت العنوان والتليفون ووسائل المواصلات التى توصل إليه، ولكن ما هى المناسبة، وهل مثل هذا العارف الربانى يُزار بغير إذن؟

وإن هى إلا أيام معدودات، وأنا أعيش حالة روحية علوية متأثرا بكتاب الشيخ رحمه الله، وإذا بمعجزة تحدث- على الأقل بالنسبة لى- حيث اشتريت كتابا صغيرًا من نفس المكان أمام المدرسة وكان كتابًا بديعًا اسمه؛ الدعاء فى القرآن، ومؤلفه الدكتور محمود بن الشريف.

ووجده معى أحد زملائى فى الفصل اسمه أشرف، وإذا به يفاجئنى بأن مؤلف الكتاب هو والده، وسعدت بالخبر وتجاذبنا أطراف الحديث، وإذا به يتبع

المفاجأة الأولى بـأخرى أكـبر وأهـم حيـث قـال لى إن جده هو الدكتور عبد الحليم محمود.

فكـدت أطير فرحا، وحدثتـه بما كان مـن أمــرى، فقــال لى سأستــأذن لـك جــدى، وكانـت الفرحــة الأكبر أن بشرنى فى اليوم التالى بـالإذن وطلـب منـى أن أذهب يوم الجمعة بعد العصر لزيـارة جـده رضـى الله عنه.

ورحت أعد اللحظات والأنفاس حتـى جـاء يـوم الجمعـة وذهبـت قبـل العصـر إلى الشـارع الـذى فيـه البيت المبارك، وصليت العصر فى مسجد قريب حتى لا يضيع منى الوقـت، وبعـد الصـلاة هرولـت إليـه، وطرقت الباب وإذا به يفتح الباب بنفسه، وأنا لم أكـن رأيته من قبل، ولكن قلبى كان يقول لى: هو هو..

فألقيت السلام ورد السلام مبتسما هادئا، وعرفتـه بنفسى، فأذن لى بالدخول إلى غرفة المكتب.

وجلست أمامه وهو يتلألأ نورا ويبتسـم وأنـا فـى صمت وكأن عمودا من النور سرى من قلبـه لقلبـى، واستجمعت قواى وقلت لـه إننـى قـرأت كتابـه عـن أسرار الحج وأحببتـه فـى الله وتمنيـت لقـاءه، فابتسـم

وسألنى ماذا فهمت منه؟

وأجبته، ففرح رضى الله عنه وقام وأتى بكتبه التى ألفها وكتب عليها إهداء لى بخطه الشريف أستحى من ذكره إذ وصفنى بحسـن ظنـه بمـا لا أسـتحق، وأذن لى بزيارته كل يوم جمعة بعـد صـلاة العصـر، وحرصـت على ذلك ما دمت فى القـاهرة، وهكـذا كـان اللقـاء وياله من لقاء..] (*)



(*) من رساله مطوله أرسلها لى من الرياض بتاريخ ٢٨/ ٤/ ٢٠٠٩م جزاه الله خيرًا.

الفصل الثالث

المصلـــــح



كانت المهمة المنوطة به -رضى الله عنه- هى الإصلاح..

والإصلاح عنده يقوم على أساس واحد.. هو الخضوع لله والسجود له!.

فى كتابه "الإسلام والعقل" أفرد الفصل الثانى لبيان ذلك تحت عنوان "السجود" الذى تحدث فيه عن إبليس.. كيف أنه كان عالما، وعابدا.. ولكنه عندما أمر بالسجود أعمل عقله فى الأمر الإلهى.. فعصى، وطُرد من رحمة الله.. ثم قال:

[وإذا كان لإبليس خلفاء من بنى آدم، فهم هؤلاء الذين يحاولون أن يقوموا بدور إبليس فى المجتمع الإنسانى.. إنهم هؤلاء الذين يرفضون الوحى الإلهى جملة، أو يحاولون أن يزنوا الوحى بميزان العقل، فيرفضون ويقبلون، ويؤولون ما شاء لهم الهوى..] [(١)]

وذكر ثلاث طوائف قال إنها "لم تسجد لله سجود خضوع وإذعان، وإنما سجدت للعقل، وعبدت العقل، فتفرقت إلى ما لا يكاد

---

(١) الإسلام والعقل، د. عبد الحليم محمود، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨، ص٣٧.

يحصى من الفرق"[١] وهى: الملاحـدة.. والفلاسـفة العقلـيين الإلهـيين.. والمعتزلة.[٢]

* * *

المواجهة

تعـرض الإسـلام فـى عصـرنا الحـديث لعـدة تيـارات- داخليـة وخارجية- تسلطت عليه لهدمه ومحو أثره فى الناس، نخص منها اثنان..

الأول: التيار الذى جاءنا من الغرب المستعمر، متمثلا فـى الفكـر المادى بكل أشكاله، والمـدعوم بـدول الاسـتعمار ومؤسسـاتها.. والـذى راح يفرض ثقافته وعاداته.. ويشكك فـى ثوابـت الـدين، ويـذرى بـه.. ويصم أعماله بالتخلف والرجعية والجمود..

والثانى جاء من المشرق، كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسـلم فى أحاديث الفتن، عمل على سلخ الدين فى حياة الناس مـن جـوهره، حتى أصبح ظاهرًا فقط..

وهذا الظاهر الموغل فى جفائه وجهله وشروده لـه- أيضـا- دول وسياسات ومؤسسات تدعمه، وتنفق عليه بلا حسـاب لإفسـاد العلمـاء واستمالة ضعاف النفوس والجهال حتى أظلمت القلوب.. وقامت الحرب على أشدها على جوهر الدين وروحه، بحجة المحافظة على التوحيد..

---

(١) الإسلام والعقل، ص٤٠.

(٢) الإسلام والعقل، ص٣٦- ٤١.

وبهذا أصبح كل ما يعين على الطاعة ويُعمِّر القلب ويجلو صدأه بدعة تحارَب أشد المحاربة.. منها على سبيل المثال:

- اتخاذ الأوراد والاجتماع على الذكر..

- كثرة الصلاة على النبى، وإذكاء محبته- صلى الله عليه وسلم- فى القلوب..

- التعلق بأهل البيت، وبأولياء الله الصالحين وبأخبارهم وأحوالهم..

- الاهتمام بالتربية، وبالعلم على منهج أهل السنة الصحيح.

وبهذا أصبح التصوف -الذى هو جوهر الدين وحقيقته- هو العدو الأول لكلا التيارين المخربين المتناميين فى الأمة.

لم يتجاهل الإمام الربانى دوره ومسئوليته فى مواجهة هذا السيل من الإفساد، وسعى- بهدوء ودأب- فى الإصلاح على ثلاثة محاور متوازية:

الأول: محور إصلاح الأزهر والمؤسسات الدينية.. وإنشاء المعاهد الأزهرية.. والعناية بحفظ القرآن.. والعمل على تطبيق الشريعة وغير ذلك من إصلاحات..

فكانت البداية هى استنهاض الأزهر.

والثانى: هو التصدى للأفكار والمؤثرات القادمة من الغرب..

والثالث: هو العمل على إحياء التصوف، وإعادة الربانية إلى حياة المسلمين.. فكتب هذا الكم الكبير مـن الكتـب والمقـالات التـى تعـرِّف بالربانيين من سلف أمتنـا، وقـام بتحقيـق عـدد كـبير مـن تـراث الأمـة الصوفى، وألقى المحاضرات وأجرى الحورات كما سيجىء بيانه..

❊ ❊ ❊

أما ما يتعلـق بـالمحور الأول، وهـو إصـلاح الأزهـر والمؤسسـات الدينية، فقد مررنا ببعضها فى الفصل السابق..

وأما ما يتعلق بالثالث، وهـو العمـل لإحيـاء الربانيـة فـى الأمـة فسيكون موضوع الفصل القادم إن شاء الله تعالى.

أما هذا الفصل الذى نحن بصدده فينـاقش المحـور الثـانى الخـاص بالتصدى للمؤثرات الهدامة القادمة من الغرب.

❊ ❊ ❊

فـى سـنة ١٩٧٧ صـدرت الطبعـة الأولى مـن كتابـه "الإسـلام والعقل"، والذى قال فى مقدمته:

[ما أظن أننى فرحت فى يوم مـن الأيـام بظهـور كتاب لى بمقدار ما فرحت حين ظهر هذا الكتـاب فـى طبعته الأولى. وذلك أنه يعبر عن منهجى الخاص فـى حياتى الفكرية: منهج "الاتباع".

وأنا أسير فى هذا المـنهج تبعـا لتوجيهـات القـرآن

الكريم، والسنة النبوية الشريفة.. وسار على سننها أئمتنا الهداة المهديون.

وهو كتاب أتقرب به إلى الله سبحانه، وأرجوه سبحانه أن يهدى له ويهدى به.] (١)

وهو كتاب عظيم القيمة، ناقش فيه الأصول الفلسفية للفكر الغربى وحضارته، وهى نتاج العقل البشرى البحت.. وبين فسادها بنفس الأسلوب العقلى.. ثم قارن ذلك بالمنهج الإسلامى المستمد من وحى السماء الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه..

وقد فرّق فيه بين علوم الطبيعة وعلوم ما وراء الطبيعة، حتى لا يلتبس الأمر على القارىء، فعلوم الطبيعة من كيمياء وفيزياء وطب وغير ذلك.. لا حرج فى أن نجتهد فيها ونأخذ منها عن الغرب وعن الشرق كما نشاء.. لا حرج فى ذلك البتة، فهى داخلة فى إطار قول النبى صلى الله عليه وسلم: "أنتم أعلم بشئون دنياكم".

أما ما يتعلق بالدين فلا نأخذ إلا عن الله ورسوله.. يقول فى الفصل الأول من الكتاب:

[يحلو لكثير من الناس أن يتحدث عن موقف القرآن من العقل، ويذكر فى بحثه أو محاضرته أن القرآن هو كتاب العقل، وأنه بأكمله دعوة صارخة

---

(١) الإسلام والعقل، ص١١.

لتحرير العقل من عقاله، وأنه يدعونا، بعبارات تختلف فى أسلوبها وتتحد فـى معناهـا، إلى اسـتعمال العقـل ووزن كل شىء بميزانه..

وهم فى هذا يؤمنون فى إخـلاص أنهـم يخـدمون الدين.. ويعتبرون ذلك نسقا فريدا فى المذاهب، ونمطا من سعة الأفق لا تصل إلى سموه العقائـد السـابقة أو المعاصرة.

وهم لا يلقون القول دون أن يستندوا فـى آرائهـم على الآيات القرآنية نفسها، وعلـى موقـف المسـلمين أنفسهم -فى تاريخهم الطويل- من الفكـر الإنسـانى، ومـن المفكـرين الـذين اتبعـوا مـنطقهم وتفكيرهـم الخاص..

وإذا ما تساءلنا الآن عما يعنـون بقـولهم إنـه ديـن العقل، أجابوا بأنه يحتكم إلى العقل. ويرون بذلك أنـه يحكّم العقل فى المسائل والمبادىء والقواعد.

وينتهى ذلك لا مناص بأن يكون العقل هو القائد، وليس الدين، وذلك قلـب للأوضـاع، وانحـراف عـن الصراط المستقيم!.] [1]

(١) الإسلام والعقل، ص١٥و ١٧.

ثم يقرر:

[نزل الدين هاديا للعقل فى جميع الأمور التى لو تُرك العقل وشأنه فيها ضل السبيل، وعجز عن الوصول إلى الحقيقة، وهذه الأمور هى:

١ - العقائد.

٢- المبادىء الأخلاقية إجمالا وتفصيلا.

٣- التشريع فى قواعده العامة، وفى بعض تفصيلاته وقواعده العامة التى تتضمن الجزئيات على مر الزمن، وعلى اختلاف البيئات.

أما الطبيعة والكون من سمائه وأرضه، ومن جباله وبحاره، ومن كواكبه وأقماره وشموسه.. أما المادة والطاقة، وأعماق البحار وآفاق السماء.. إن كل ذلك قد تركه للإنسان يدرسه فى مصنعه ومعمله بآلاته وأدواته.

وحثه على أن يجول فى ذلك ما استطاع إليه سبيلا، حتى يكتشف سنن الله فى الكون، ونواميسه الطبيعية، ويرى صنع الله الذى أتقن كل شىء، ولم يحجر الدين على الإنسان فى هذا المجال، اللهم إلا الواجب الذى ينبغى أن يكون شعاره دائما هو أن

يكون هدفه فى كل ذلك الخير.] (١)

هذا الاتجاه إلى إعطاء العقل أكثر من قدرته التى خلقه الله عليها نشأت له مدارس وأفكار ومفكرين وفلاسفة.. ومن سموا أيضا بـ "المصلحين" و"المجددين" و"التنويريين" وغير ذلك..

* * *

الإمام محمد عبده

كان الإمام محمد عبده قد استقر فى وعى الأمة أنه المجدد والمصلح فى العصر الحديث، ولكن الشيخ الإمام عبد الحليم محمود لا يساير هذا الاتجاه.. بل ينقضه فى ضوء ما يدعو إليه من الخضوع لله ، والسجود له.

تكلم الشيخ عن فرقة "المعتزلة" كواحدة من الفرق التى جرت وراء العقل وحكّمته فى الدين.. فقال:

[أما الطائفة الثالثة التى لم تسجد لله إلا شكلا، فإنها طائفة المعتزلة.. ومذهبهم قائم على تحكيم العقل فى الدين، ووصل بهم الأمر إلى أنهم يوجبون على الله بعض الأعمال -سبحانه وتعالى- ويُحرّمون عليه إتيان بعضها -سبحانه وتعالى- فوضعوا أنفسهم موضع المشرعين لله..

(١) الإسلام والعقل، ص٣٠.

وكان لا بد -وقد اتبعوا أهواءهم- أن يختلفوا ويتفرقوا، وتذهب بهم الأهواء كل مذهب، فكانوا فرقا وأحزابا شتى، لا تكاد تدخل تحت حصر.

وكل من نهج النهج العقلى فى الدين -فى العصر الحاضر- إنما هو تابع من أتباع المعتزلة.

ولا مناص من الإقرار بأن مدرسة الشيخ محمد عبده إنما هى مدرسة اعتزالية فى مبادئها وأصولها، وهى مدرسة اعتزالية فى غاياتها وأهدافها، ذلك أنها تضع قضايا الدين فى ميزان عقلها، فتنفى وتثبت، حسبما تقتضيه الأهواء والنزعات.

والمدرسة العقلية فى الدين- أيا كانت، وفى أى مكان وجدت، وفى أى زمان نشأت- لم تسجد لله سجود خضوع وإذعان، إنما سجدت للعقل، وعبدت العقل..] [(١)]

وفى موضع آخر من الكتاب يقول:

[إننا جميعا نجل الشيخ محمد عبده ونحترمه، وندين له بكثير من تخليص الدين من الخرافات والأساطير، ولكن حينما نقرأ له تفسير قصة آدم نراه لا يمنع

(١) الإسلام والعقل، ص٣٩- ٤٠.

احتمال أنها تمثيل، ونتساءل:

لم ذكر الشيخ محمد عبـده هـذا الاحتمـال؟ حينمـا نتساءل حقيقة عن السر العميق -فـى الشـعور أو فـى اللاشعور- نجد أن الشيخ محمـد عبـده رأى أن فكـرة التطور منتشرة فى جميع أرجاء أوربا، بل والعالم، وهى -فيما يرى بظاهرها- تتعارض مع التعاليم التى تنبىء بأن آدم هو أول البشر، وهو الذى خلقه الله وسواه..

رأى الشيخ محمد عبده أن كل ذلك لا يتلائم كثيرا مع فكرة التطور المزعومـة.. فمـاذا صـنع؟ ذكـر هـذا الاحتمال، وبذلك يمكننا أن نؤولها كيفمـا شـئنا، ومـا كنا نود أن يجيز ذلك، إذ يفـتح للنـاس بـاب التأويـل فى صورة من الاستفاضة الضارة.

كمـا رأى الشـيخ محمـد عبـده أن يفسـر اخـتلاف رسـالات الرسـل وتعاقبهـا- موسـوية، وعيسـوية، وإسلامية- بتطور الإنسانية، حسبما يرى.

حسـية فـى زمـن موسـى، فكانـت رسـالة سـيدنا موسى حسية. ثـم تطـورت الإنسـانية مـن الحـس إلى العاطفة، فكانـت رسـالة سـيدنا عيسـى عاطفيـة. ثـم تطـورت الإنسـانية مـن الحـس والعاطفـة إلى العقـل،

فكانت رسالة سيدنا محمد عقلية.] [١]

* * *

ختم الشيخ الإمام كتابه المهم بالدعوة للتصدى للمؤثرات الغربية هيئات، وجماعات، وأفرادا.. فإن هذه مهمة المسلم.. أن يحطم أصنام الهوى والمادة والشهوة.. حيث قال:

[وإنى لأرجو- فى النهاية- أن يتكاتف المخلصون فى العالم الإسلامى ويتساندوا، ليقفوا أمام هذا الزحف المتتابع من المدنية الغربية، التى تريد أن تطمس الإسلام فى أهدافه، وفى نُظمه، وفى تعاليمه، وفى أقدس مقدساته.

إذا أمكن أن يتكاتف المخلصون فإن الأمر سينتهى بالنصر، أما إذا لم يتكاتفوا فإن ذلك لا يعفى كل مسلم- منفردا- من العمل الجاد فى سبيل إعلاء كلمة الله، والعمل على سيادة المبادىء الإسلامية، ففيها سعادة العالم إن شاء الله تعالى.] [٢]

* * *

---

(١) الإسلام والعقل، ص٢٢٨.

(٢) الإسلام والعقل، ص٢٣٨.

كثيرا ما يشير الشيخ- بشكل مباشر- إلى مؤامرة على الأمة الإسلامية، منبها إلى ضرورة العمل على إفشالها.. فيقول:

[لقد شغلنا الأعداء بخلافات ما كان ينبغى أن تكون بين المسلمين، يشغلون أنفسهم بها، تاركين الأعداء يهدمون الدين، وينكلون بالمسلمين.

هل آن لنا أن نفكر فيمن يريد أن يستأصل الإسلام من أساسه؟ وأن يأتى عليه من القواعد؟ ويعمل جاهدا على إزالته من الوجود؟

أرجو الله أن ينبه علماءنا الأفاضل ومفكرينا الأجلاء إلى الخطر الآتى من الغرب، ومن الشرق، ليتخذوا عدتهم لمقاومته.] (١)

❊ ❊ ❊

التصدى للشيوعية

كان الفكر الشيوعى قد انتشر فى مصر بشكل كبير، وسيطر -أو كاد- على مقاليد الحياة الثقافية، فى فترة حكم الرئيس جمال عبد الناصر.. وذلك بسبب لجوئه إلى الاتحاد السوفيتى الشيوعى- آنذاك- لمواجهة التحديات الغربية.. قال الشيخ فى مقدمة كتابه "أبو ذر والشيوعية" :

---

(١) أبو ذر والشيوعية، د. عبد الحليم محمود، دار المعارف بمصر، ص٨.

[كنت من زمن بعيد أسمع أحاديث هنا وهناك عن أبى ذر وصلته بالشيوعية، أو بالاشتراكية. ودُعيت -منذ سنوات عدة- لرؤية تمثيلية فى التليفزيون لأبدى رأيى فيها.

فرأيت تمثيلية لا يكاد يعرف كاتبها عن الإسلام شيئا. لقد شوهت التاريخ، وقلبت الحقائق، وافترت على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم..

وأبديت رأيى -إذ ذاك- فى صراحة تامة.. ومُنع تمثيلها..

وشاءت المقادير أن أساق سوقا إلى معركة مع الشيوعية بسبب كلمة عابرة.. كتبتها عن الشيوعية، فكان الرد.. صفحات من الشتائم والسباب والتهجم على شخصى، وعلى ما أمثله..

وفوجىء العالم الإسلامى بهذا الهجوم، واشمأز منه، أما أثره فى نفسى فإنه لم يكن غضبا.. لقد أنزل الله على قلبى سكينة تامة..

واستغرقت فى تفكير مركز فى الشيوعية، وكانت نظرة شاملة -بحسب ما عندى من معلومات- فأرتنى أن الشيوعية تنكيل، وتعذيب، وقتل، وإراقة دماء،

وسحل إذا ملكت وتحكمت.

وهى هجوم وسباب وشتائم لإسكات الأقلام والألسنة إذا لم تكن قد وصلت إلى التحكم والسيطرة.. ورأيت من تاريخ الشيوعية الطويل أنها من أعدى أعداء الإسلام، كما أنها من أعدى أعداء المسيحية.

وتساءلت: لم سكت علماء الإسلام عنها؟

لم سكت أحبار المسيحية عنها؟

بل تساءلت: لم لم أكتب أنا عنها من قبل؟

لم لم أجعل دراستى لها، وبيانها للناس، من منهجى فى الإصلاح؟] [(١)]

❊ ❊ ❊

وحى السماء

لا يُتصور -قط- إصلاح فى الأمة المسلمة إلا بإعادة ربطها بالوحى.. لأن هذه الأمة وليدة اللحظة التى نزل فيها وحى السماء على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأول مرة فى "غار حراء"، وقال له: "اقرأ" . أما عدا ذلك من إصلاح فهو حرث فى الماء، وإهدار للوقت

---

(١) أبو ذر والشيوعية، ص٧.

والجهد والمال.. وهو الأمر المشاهد فى مختلف المجالات والأصعدة..

لذلك وجه الشيخ الإمام كلمة إلى كل مسئول فى الدولة قال فيها:

[إن القرآن الكريم هو مصدر هدايتنا، وأساس نجاتنا، دنيا وأخرى، ومهما اختلفنا فى أمر من الأمور، فإننا لا نختلف فى النتيجة السعيدة التى تثمرها العناية بالقرآن الكريم للفرد والأسرة والمجتمع.

﴿إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم﴾.

التى هى أقوم فى العقيدة.

التى هى أقوم فى الأخلاق.

التى هى أقوم فى التشريع.

والتى هى أقوم فى نظام المجتمع.][1]

ويمضى الشيخ فى سوق الأدلة والبراهين على ذلك، ثم يقول:

[وإذا كان الأمر كذلك، فما بال قومنا اتخذوا هذا القرآن مهجورا؟..

إن الكثيرين من كبار المسئولين لا يؤدون للقرآن ما ينبغى له، وإن الكثيرين من كبار الأثرياء لا يؤدون

---

(١) الحمد لله هذه حياتى، ص٤٠.

للقرآن ما ينبغى له، وإن الكثيرين من كبار المثقفين لا يؤدون للقرآن ما ينبغى له..] (١)

ويمضى الشيخ فى شرح بعض مظاهر هذا الانفصال عن القـرآن، شريعة المسلمين، وما نتج عن ذلك من نتائج.. فيقول:

[استمر الإسلام يطبـق التشـريع الإلهـى المعصـوم عـدة قـرون إلى أن أنشـأت مصـر مـا سمّتـه المحـاكم المختلطة، وتخلت عن التشريع الإسلامى..

حينمـا احتـل المسـتعمرون أرض الإسـلام بـدأوا يهدمون كل ما يقوى الشعور الإسلامى فى النفـوس، ومـن أجـل ذلـك غـيروا القـوانين الإسـلامية، وأتـوا بقوانين أوروبية، ألزموا بها أهل الأوطان المحتلة..

وأنشـأوا مـدارس لتعلـيم القـوانين الأوروبيـة، وأصبحت هذه المدارس (فيما بعد) كليـات الحقـوق، وهـذه الكليـات تـدرس القـوانين الأوروبيـة، وتنفـق عليها الدولـة لتخـرّج قضـاة ووكـلاء نيابـة ومحـامين تخصصوا فى التشريع الأوروبى..

وما من شك أنهم كانوا مغلوبين على أمرهم أيـام

---

(١) الحمد لله هذه حياتى، ص٤٠- ٤٤.

كان الاستعمار جاثما على صدور الأمم الإسلامية، يأمر فيها وينهى. ولكن الاستعمار قد خذله الله، وانهزم، ورجع المستعمرون إلى بلادهم، وكان من الطبيعى أن يزيل المسلمون آثاره فى:

* التعليم الذى وضع المستعمر برامجه لتخرج مجرد موظفين.

* فى اللغة التى كان يحاول أن يقضى عليها كما فعل فى الجزائر..

* وفى الأخلاق التى حاول أن ينزل بها إلى مستوى لا تنهض معه أمة..

* وفى التشريع الذى جعله أوروبيا، وأحله محل شريعة الإسلام. ولقد وصل الأمر بالاستعمار أن صاغ خريجى كليات الحقوق بحيث لا يفهمون بعد الليسانس كتابا عربيا فى المواد التشريعية.. والتشريع الإسلامى من مفاخر الحضارة الإسلامية، ورجاله من نوابغ المفكرين فى العالم، لكننا -بعد ذلك النبوغ وتلك العبقرية- قد أصبحنا أتباعا مقلدين..] [١]

---

(١) الحمد لله هذه حياتى، ص٦٤ وما بعدها باختصار يسير.

وهنا لا يكتفى الإمام بتسليط الضوء على المشكلة، بل يتقدم أيضا إلى المسئولين للقيام بواجبهم تجاهها فيقول:

[وهذا الموضـوع أطرحـه أمـام القـادة، ولعـل الله يحدث بعد ذلك أمرا فيما يتعلق بهذه الكليات..

لكن السؤال الملح الذى يطرح نفسه بعد ذلك هـو ما حدث فى غيبة التشربع الإسلامى، ماذا حدث؟

شر كلـه.. وإننـى حينمـا أتحـدث عـن فـترة غيبـة التشريع الإسلامى التى مازالـت مسـتمرة، لا أتحـدث عن مصر وحدها، وإنما أتحدث عن كـل الـدول التـى غاب عنها التشريع الإسلامى وما زال غائبا.

ماذا حدث فى غيبة التشريع الإسلامى؟

١- حدث كل هذا الرجس الـذى نـراه ونشـاهده أينمـا سـرنا: فـى المعـاملات، وفـى السـلوك، وفـى العقيدة، وفى الاستهتار بـالقيم الدينيـة اسـتهتارا بلـغ من شأنه أن أصبح الإلحاد فى الدين من الأمـور التـى تمر فلا تسترعى الانتباه..

٢- والإلحاد فى دين الله جدلا فى الحدود القاطعة التى فرضها الله عقابا على الجرائم.

وإذا أخذنا الآن بعض الأمثلة فإننا نقول: إن قطع يد السارق أمر فرضه الله لا خلاف فيه، وهو علاج ناجع ضد السرقة، ويكفى أن يرى الناس الجد فى التنفيذ. يكفى أن تُقطع يد سارق أو اثنين، أو عدد لا يصل إلى أن يعد على أصابع اليد، فتمتنع عن السرقة نهائيا..

وقد تمر أعوام لا تقطع فيها يد، وذلك أن طابع الجد يجعل كل من تسول له نفسه السرقة ينظر إلى يده فيتخيلها مقطوعة، فيرهب ويهرب من مجرد التفكير فى الأمر..

وفى غيبة التشريع الإسلامى أنشأت فى بعض الأقطار الإسلامية مزارع ومصانع لإنتاج الخمور، والخمر على حد الوصف فى القرآن: ﴿رِجۡسٌ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾. قليلها حرام، وكثيرها حرام، واتخاذها كدواء حرام..

٣- وفى غيبة التشريع الإسلامى كان هذا الطوفان من العُرى، ومن كتب الجنس، ومن هذه الأفلام التى تثير الغرائز وتفسد الشباب، والتى تنفق عليها الدول أموالا طائلة..

٤- وفى غيبة التشريع الإسلامى كان الربا، وكثرة الرشوة والاختلاسات، وكان كل هذا الـرجس الـذى تعيش فيه بعض الأقطار..] (١)

* * *

شـريعـة الإسـلام

عُرف الشيخ -رضى الله عنه- فى مختلف الأوساط بأنـه الـداعى إلى التمسك بعرى الإسلام، والمناضل من أجل العودة إلى أخلاقه وآدابـه وشرائعه..

هذا الصدق.. وهذا الإخلاص.. وهذا التبتل لله.. ما كانت تخفى علاماته على من عرفوه أو سمعوه.. إنه رجـل لم يـرد شـيئا لنفسـه.. لم يحركه إلا طلب مرضاة الله، فصدقه غالبية الناس ووثقوا به..

عندما نجح الجيش المصرى فى اقتحام قنـاة السـويس فـى حـرب العاشر من رمضان- ٦ أكتوبر سـنة ١٩٧٣- انتعشـت آمـال المسـلمين، وتطلع بعضهم إلى عهد جديد، يـؤذن بمزيـد مـن الإصـلاح فـى مختلـف أوجه الحياة..

وكان قضاة مصر من أوائل من ظهر عندهم هذا التوجـه، لأنهـم أعرف الناس بعجز القوانين الوضعية عن حـل مشـاكل المجتمـع.. ونشـأ عندهم التطلع إلى تطبيق شريعة الله التى هى الكمال بعينه!.

---

(١) الحمد لله هذه حياتى، ص٦٤ وما بعدها باختصار.

فكان أن توجهوا بدعوة الشيخ الإمام ليلقى عليهم محاضرة فى هذا الشأن، فاستجاب على الفور.. وألقى محاضرة بديعة، أوردها بكاملها الدكتور رؤوف فى كتابه[١].. ولو كان الأمر بيدى لجعلتها أول ما يستقبله طالب كلية الحقوق قبل أن يشرع فى دراسة أى من المواد المقررة عليه.

كان موضوع المحاضرة هو: "القانون الإلهى والقانون الوضعى".

إذن فالشيخ الإمام يقيم مقارنة بين القانونين.. ولكن على أساس عقلانى فلسفى.. ليقنع من لا يقتنعون إلا بالأدلة العقلية.. كأنه يتوجه بخطابه إلى جماعة من مفكرى الغرب وفلاسفته، حتى يصل معهم إلى النتيجة الحتمية التى لا يوجد ما يضاهيها..

وستجد لها تلخيصا مناسبا- إن شاء الله- بالملحق رقم[١] بآخر هذا الكتاب.. ومن شاء فليرجع إليها كاملة فى موضعها..

* * *

من أقوالــــه

- القلوب الميتة لا تحييها إلا توبة صادقة.[٢]

- إن الله -فى عظمته وجلاله سبحانه- لا يلقى برسالته ليبحثها الإنسان ويبدى فيها رأيه نفيا أو إثباتا، سلبا أو إيجابا.. كلا. بل كل من

---

(١) شيخ الإسلام عبد الحليم محمود، من ص ٢٢٠ -٢٣٣.

(٢) الإمام النورانى الزاهد، ص ١٤.

توهم ذلك فإنه لا يقدر الله حق قدره، وإنما ألقاها سبحانه لتتبع فى خضوع وسجود "[١].

- "إن الدين لا يتعارض مطلقا مع العلم، ذلك أن دائرة العلم إنما هى دائرة المادة والمحسوس، أما دائرة الدين فهى الأخلاق من خير وشر والعقيدة وما وراء الطبيعة "[٢].

- "الاجتهاد فى الإسلام معناه أن يحاول المجتهد ما استطاع أن يربط بين حادثة حدثت جديدة وبين قاعدة إسلامية موجودة، أو أن يدخل فى نطاق قاعدة إسلامية عامة حادثة من الحوادث التى حدثت جديدة.[٣]

- " مهمتنا جميعًا هى مهمة الرسول: تحطيم الأصنام: صنم الشهوة والهوى المتغلغل فى النفس، وتحطيم صنم المادة، ونشر رسالة الحق والرحمة حتى ننتهى من كل ذلك بأن يُسلم العالم وجهه إلى الله "[٤].

- "كل ما كتبته عن التصوف، وعن الشخصيات الصوفية يسير فى فلك هذا المنهج؛ منهج الاتباع "[٥].

---

(١) الإسلام والعقل، د. عبد الحليم محمود، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة ١٩٨٨، ص٢٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) شيخ الإسلام عبد الحليم محمود ص ١٨٧.

(٤) الإسلام والعقل، ص ٢٣٨.

(٥) الحمد لله هذه حياتى ص ١٧٩.

- "لا تُعارض من تلمس فيه الغرض الواضح، لأن النقاش لا يُفيد غير طالب الحقيقة، أما الذى يتمسك بما يقول برغم وضوح خطئه، فمعارضته لا تفيد. دعه يتكلم، فالكلام لا يُحق باطلا، ولا يبطل حقا. ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين﴾[١]

- "الوحى لايوجد الآن فى صورته الصحيحة إلا فى اللغة العربية، ولا يتأتى فهمه فهما دقيقا إلا بتذوق هذه اللغة والتعمق فيها".[٢]

- "إن عظماء الرجال لا يتركون هذا العالم إلا وقد تركوا أثرًا لا ينمحى أبد الدهر[٣]

* * *

آثاره العلميـــة

ترك الشيخ الإمام تراثا علميًا زاخرًا وفريدًا انتفع به الكثيرون، ولايزال نفعه وبركته فى ازدياد إلى ما شاء الله.

وأذكر أن أول ما قرأت فى التصوف كانت كتبه.. وأول من عرفت من أقطاب التصوف كان بواسطته.. أحببتهم وتعلقت بهم لما قرأت كتبه عنهم.. أبو مدين الغوث.. والشبلى.. وبشر الحافى.. وعبد

(١) من أعلام العصر ص ٢٩١.

(٢) الإسلام والعقل، ص٥٣.

(٣) من مقدمة رسالة الدكتوراه عن المحاسبى وقد تقدم نصها.

السلام بـن مشـيش.. وأبـو يزيـد البسـطامى.. وأبـو الحسـن الشـاذلى.. وغيرهم..

أسلوبه يفهمه القارىء العادى: سهل.. تلقائى.. منير!..

قال الأستاذ على عبد العظيم فى شأن مؤلفاته الغزيرة:

[وإنى لأعجب كيف استطاع وحده أن يقدم إلينـا هذا الإنتاج الغزير، ولكن الله بـارك فـى فكـره وقلبـه ولسانه فتفجرت منـه ينـابيع العلـم الغزيـر والحكمـة السامية.

وتنـــوع إنتاجـــه فصـــنف فـــى الفلســـفة والفقـــه والتصـــوف والســـيرة النبويـــة والقضـــايا الاجتماعيـــة والتراجـــم التـــى تنـــاول فيهـــا كبـــار المحـــدثين وأعـــلام الصوفيين وصفوة الفقهاء المشرعين.

هـــذا إلى جانـــب مـــا حققـــه مـــن ذخـــائر الـــتراث الإسلامى الخالد، وما كتبه بالفرنسية أو ترجمه عنها إلى العربية.] (١)

* * *

جمع الدكتور رؤوف شلبى مؤلفات الإمام، ونظمهـا فـى أبـواب،

---

(١) مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن، على عبـد العظـيم طبـع مجمـع البحـوث الإسلامية بالأزهر، القاهرة ١٩٧٨، ص ٤٤٩.

وها هى ذى كما وضعها:

*** فى إحياء المفاهيم الإسلامية:**

١- القرآن والنبى.

٢- الإسلام والإيمان.

٣- العبادة.

٤- الإسلام والعقل أو التوحيد الخالص.

*** فى قضية التصوف:**

٥ - المنقذ من الضلال.

٦- المدرسة الشاذلية.

*** مع الرسول صلى الله عليه وسلم:**

٧- دلائل النبوة.

٨- الرسول صلى الله عليه وسلم.

٩- السنة الشريفة.

١٠-الحج المبرور.

١١-فى رحاب الأنبياء والرسل.

*** فى العبادات والذكر:**

١٢- الحج إلى بيت الله الحرام.

١٣- الجهاد والنصر.

١٤- جهادنا المقدس.

١٥- القرآن فى شهر القرآن.

١٦- فاذكرونى أذكركم.

١٧- يارب.

*** فى قضايا الفلسفة:**

١٨- الفكر الفلسفى فى الإسلام.

١٩- فلسفة ابن طفيل.

٢٠- الفلسفة والحقيقة.

*** موقف الإسلام من الشيوعية:**

٢١- الإسلام والشيوعية.

٢٢- فتاوى فى الشيوعية.

٢٣- أبو ذر الغفارى والشيوعية.

٢٤- منهج الإصلاح الإسلامى.

*** كتب مترجمة:**

٢٥- الفلسفة اليونانية.

٢٦- الأخلاق فى الفلسفة الحديثة.

٢٧- المشكلة الأخلاقية والفلاسفة.

٢٨- وازن الأرواح.

٢٩- المسيحية نشأتها وتطورها.

٣٠- محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

*** كتب مختلفة:**

٣١- أجزاء من التفسير.

٣٢- فتاوى فى الأخلاق والمعاملات.

٣٣- أوربا والإسلام.

٣٤- الحمد لله هذه حياتى.

٣٥- أبحاث ومقالات ومحاضرات وأحاديث فى عدة مجلدات.

*** أعلام التصوف:**

٣٦- السيد احمد البدوى.

٣٧- سفيان الثورى.

٣٨- شمس الدين الحفنى.

٣٩- عبد الله بن المبارك.

٤٠- الحارث المحاسبى.

٤١- إبراهيم بن أدهم.

٤٢- أبو العباس المرسى.

٤٣- على زين العابدين.

٤٤- أبو مدين الغوث.

٤٥- سعيد بن المسيب.

٤٦- أبو بكر الشبلى.

٤٧- أبو الحسن الشاذلى.

٤٨- أبو يزيد البسطامى.

٤٩- الفضيل بن عياض.

٥٠- بشر الحافى.

٥١- ذو النون المصرى.

٥٢- الليث بن سعد.

٥٣- سهل بن عبد الله.

٥٤- عبد السلام بن بشيش.

*** تحقيقات فى التراث (الصوفى):**

٥٥- الرعاية لحقوق الله.

٥٦- اللمع.

٥٧ – الفلسفة الهندية.

٥٨- التعرف على مذهب أهل التصوف.

٥٩- الرسالة القشيرية.

٦٠ – الطريق إلى الله أو كتاب الصدق.

٦١- عوارف المعارف.

٦٢- غيث المواهب العلية.

٦٣- حكم ابن عطاء الله.

٦٤- لطائف المنن.

*** فى الرقائق والأدب السلوكى:**

٦٥- السنة فى مكانتها وفى تاريخها

٦٦- كيف يستقبل المسلمون شهر رمضان؟.

٦٧- التصرف عند ابن سينا.

٦٨- وربك الغفور ذو الرحمة (وهو آخر كتاب كتبه).

* * *

هذا.. غير عدد كبير من الأحاديث الإذاعية والتليفزيونية، والمقالات والندوات والمحاضرات.. تراث عظيم، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يقيض له من يجمعه وينشره للناس حتى ينتفعوا به.

وقد كتب سيرته الذاتية فى كتابه "الحمد لله.. هذه حياتى"، وهو من آخر مؤلفاته، صدر سنة ١٩٧٧، وكانت نيته أن يكمله بجزء ثان، لكنه توفى فى العام التالى، فلم يكمله..

وإنى لم أغبط كاتبا -قط- على عنوان كتاب له كما أغبط شيخ الإسلام الدكتور عبد الحليم محمود على العنوان الذى اختاره لكتابة سيرته.. "الحمد لله.. هذه حياتى".

هو فتح من الله، وتوفيق كبير..

* * *

جوهر الإصلاح

هل يُتصور- قط- إصلاح فى الدين دون أن يواكبه إذكاء لروح التصوف؟؟

قال النبى صلى الله عليه وسلم : "ألا إن فى الجسد لمضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب"[(١)].

التصوف وحده هو الذى يعتنى بالقلوب باقتدار، يفرغها من حب الدنيا واتباع الهوى.. حتى تستضىء بنور الله!.

لم يكتف الشيخ الإمام بما كتب وقدم، ولكنه أيضا طبع عن طريق الأزهر عددا من أمهات كتب التصوف لتوزع على أئمة المساجد والوعاظ، ولتودع فى مكتبات المساجد..

وهنا حادثة يجب علىّ أن أرويها لما لها من دلالات وإشارات..

قبل سنوات وصلت إلى أحد المساجد بقرية "ناى"، قرية أخوالى بالقليوبية، مجموعة من هذه الكتب عددها فيما أظن ثلاثة أو أكثر وهى "الرسالة القشيرية" للإمام القشيرى، و"نفحات الأنس" للإمام عبد الرحمن الجامى و "كشف المحجوب" للهجويرى.

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن النعمان بن بشير.

ولما كان القائمون على المسجد ممن انقلبت الموازين عندهم، واستقر فى عقولهم أن التصوف يهدم الإسلام فقد أرادوا حرق الكتب..

هكذا بكل بساطة، ظنا منهم أنهم ينصرون سنة النبى صلى الله عليه وسلم، وعقيدة الإسلام!؟..

وتصادف أن كان حاضرًا معهم قريب لى، فقال لهم إن فلانا– يقصدنى– يحب هذه الكتب، وبعد جهد جهيد استطاع أن يستخلص منهم كتابان هما "كشف المحجوب" و "نفحات الأنس" وأحضرهما إلى– جزاه الله خيرًا– فكانت فرحتى بهما لا توصف.

لك الله يا شيخنا الإمام، ما أنفقت عليه عصارة وقتك ودمك وأعصابك جاء جهال من بعدك يقذفوه فى النار وهم يظنون أنهم يحسنون صنعًا، وصدق نبينا الحبيب– صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله– إذ قال: "أوشك العلم أن يذهب ويظهر الجهل حتى يضرب الرجل أمه بالسيف من الجهل"[(١)].

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه عبد الرازق فى المصنف، عن أبى موسى الأشعرى.

الفصل الرابع

الصـــــوفى



العالِم الربانى

[لا يفارقك وأنت فى مجلس الإمام عبد الحليم محمود إحساسك أنك مع إنسان يعرف ربه، وأنه بهذه المعرفة الحقيقية قد ارتفع إلى مستوى وضىء، فأنت معه فى مكان واحد، ولكن شعورك يدعوك إلى أن ترى أنه فى السماء، وأنك فى الأرض..]

هذه الكلمات قالها الدكتور محمد رجب البيومى[(١)] وهى تصور واقعًا يفسر لنا الكثير من الأمور والمواقف فى حياة الشيخ التى نقف أمامها مبهورين ومندهشين فى آن واحد.

لقد كان قلبه معلقًا بالله؛ جسمه فى الأرض.. وروحه فى السماء، ومن كان هذا شأنه لا يرى للدنيا خطرًا، ولا يرجو من الناس نفعًا، ولا يخشى منهم ضرًا. يُرِى الله ما يفعل، غير عابىء بما يقول الناس..

لقد تشرب روح التصوف، وعاش مطمئنا فى ظله الوارف.. وتعلق قلبه برجاله وأبطاله وفتيانه، وزالت بينه وبينهم الحجب، فنال على أيديهم خيرا وفيرا..

[حرص الشيخ -رحمه الله- على تلقى العهود من

---

(١) الإمام النوارنى الزاهد ص ٢٥.

الكثير من مشايخ الطرق الصوفية فى مصر والعالم الإسلامى، ليتبرك بهم.. وكان حريصا على الالتقاء بالأولياء الأحياء، وزيارة أضرحة الأموات فى كل البلاد التى زارها، سواء فى مصر أو فى الخارج.

فما أن يحل ضيفا كريما على بلد حتى يسأل عن حماته من الأولياء الصالحين، فهم أصحاب البلد وهو ضيف عليهم، ومن واجب الضيف أن يحيى المضيف الذى ينزل فى جواره..] [١]

كان عندما يشرع فى الكتابة عن واحد من رجال الله يذهب لزيارته فى قبره، إن كان ذلك متيسرا له، فيستأذن، ويطلب المدد، ويبدأ فى رحابه يسطر أولى كلماته..

فعل ذلك مع أبى الفتيان السيد أحمد البدوى، ومع الشيخ عبد السلام بن مشيش الذى زار مقامه بالمغرب الأقصى بقمة جبل علم، وهو شيخ أبو الحسن الشاذلى الذى كتب عنه أيضا، وكان حريصا على أن يمكث فى المغارة التى كان يتعبد فيها بتونس قبل أن يُطلب منه أن يخرج لكى ينفع الناس.. وقد وصف تلك الرحلة الحميمة فى مقدمته لكتاب المدرسة الشاذلية فقال:

[.. حتى إذا كانت سنة ١٩٦٢ دُعيت إلى تونس

---

(١) الإمام النورانى الزاهد، ص٣٠.

أستاذا زائرا لمدة شهر، بجامعة "الزيتونة"، فتجددت عندى الذكريات عن أبى الحسن. وأخذت أتنسم عبيره فى تونس.

لقد صعدت إلى الجبل الذى كان يتعبد به، ودخلت المغارة التى كان يعتكف بها، وهى مغارة تتسع فى المبدأ لمجموعة من الناس، ثم ينزل بها الإنسان فيصل إلى مكان يتسع لأفراد قليلين، وينزل فيها من جديد حتى يصل إلى المكان الأخير الذى لا يتسع إلا لشخص واحد.

ونزلت إلى نهايتها، وجلست خاشعا متعبدا حيث كان يتعبد أبو الحسن، وحيث كان يقضى الساعات الطوال ليلا ونهارا، وحيث كان يخلو- فريدا- بربه متضرعا، يغله الشوق، وتغمره المحبة، ويعمر قلبه اليقين.] (١)

وفى زيارته لضريح الشيخ أحمد الدردير نوى الكتابة عنه.. وعندما أراد الشروع فى الكتابة أخذ أوراقه وذهب إلى المدينة المنورة فى رحاب سيد الكائنات، وممد الأولياء والأصفياء....

فيقول فى مقدمته:

---

(١) قضية التصوف- المدرسة الشاذلية، ص٧.

[بدأت التفكير فى الكتابة عن الإمام الدردير فـى شهر ربيع الأول سنة ١٣٩٣هـ، وذلك أثنـاء زيـاراتى لضـريحه المبـارك، وأخـذت فـى الشـهر نفسـه أجمـع المراجع من هنا وهناك، وقـد يسـر الله جمعهـا أو جمـع الأهم منها فى أيام قليلة.

وما إن تم جمع الأهم منها حتـى هيـأ الله الظـروف لزيارة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم فى شهر مولده الشريف، فأخذت المراجع معى، وفى الروضـة الشريفة بدأت الكتابة عن سيدى أحمد الدردير.

ولمـا انتهـت مـدة الإقامـة بالمدينـة المنـورة علـى صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم، وسافرت معتمرا إلى مكة المشرفة، أخـذت فـى الدراسـة والكتابـة عـن سيدى الدردير بجوار بيت الله الحرام.] [1]

* * *

كان من المهم على الشيخ الإمام أن يوالى بالمياه رى شجرة الـدين التى جفت أو كادت.. وذلك بالعمل على بعث الربانية من جديد..

لم يكن فى ذلك منتصرًا لمذهب خاص به، أو فرقـة ينتمـى إليهـا، وإنما أراد أن يبث فى الأمة فهم التصوف على حقيقته، لأنه الذى يعتنـى

---

(١) أبو البركات سيدى أحمد الدردير، عبد الحليم محمود، ص٥.

بالعمل والتطبيق.. حتى قيل ضمن تعريفاته المتعددة: إن التصوف هو العمل بالعلم.

لذلك ارتبط الأزهر بالتصوف منذ القديم، حيث كان طلابه يتخذون فيه مشايخ التربية كما يتخذون مشايخ العلم، وكثيرا ما كان العلم والتربية يجتمعان فى شيوخ معلمين ومربين..

إننى عندما كتبت عن أولياء مصر[١] وجدت نسبة كبيرة منهم من علماء الأزهر الشريف.. حتى ليصدق عليه: "بيت الولاية" أو "مصنع الأولياء"..

لكن الأزهر، تحت وقع الضربات المتتالية منذ حل الاستعمار الأوروبى بمصر إلى الآن، فقد الكثير من خصوصيته وحيويته.. وأصبح فى حاجة إلى من ينفخ فيه روحا جديدة..

وكانت هذه مهمة حمل الشيخ الإمام ثقلها العظيم على كاهله.. وعمل لها- ليلا ونهارا- إلى أن لقى ربه!..

* * *

من قضايا التصوف

عندما أراد الأستاذ على عبد العظيم أن يتكلم عن صوفية الشيخ

(١) وذلك فى كتاب "رفع أعلام النصر بذكر أولياء مصر" - صدر منه الجزء الأول والثانى عن دار المقطم بالقاهرة.

وجهوده فى التعريف بالتصوف الصحيح قال:

"وانتشر فى جو الصوفية التزام بعض الطقوس التى تخالف الإسلام من مباشرة الرقص والغناء واللهو مع تضخيم العمائم وإطالة المسابح ولبس المرقعات القذرة.. حتى نفر منها المثقفين المستنيرين"..

وقال فى موضع آخر:" ليس التصوف زهدا فى الطيبات، ولا انصرافا عن العمل، ولا استسلاما للتواكل".. وأيضا: "الصوفية ليست دروشة ولا زهدا، ولا ترهبا ولا تعذيبا للنفس"[(١)]..

وشبيه بهذا الكلام يتردد كثيرا، ليس فقط من أعداء التصوف، ولكن أيضا ممن يحبونه، ويظنون أنهم بذلك يدافعون عنه!.

لكن هذا الكلام يهدم فى حقيقة التصوف التى هى تعلق القلب بالله سبحانه وتعالى، سواء كان صاحب القلب لابسا مرقعة "قذرة".. أو معتزلا الناس فى الكهوف وعلى قلل الجبال.. أو زاهدا فى الدنيا لا تزيد فى نظره عن الجيفة فى نظر أحدنا.. أو مجذوبا يرقصص، أو يرفع صوته بالتهليل أو الصلاة على الحبيب.. أو منتشيا يتمايل مع الذكر والنشيد..

من أطلعنا على سرائرهم حتى نحكم عليهم ؟؟!!..

إن لله رجالا، جعل لكل منهم مهمة فى الحفاظ على الدين،

---

(١) مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن، ص٤٣٠- ٤٣٦.

يؤديها كما يحب مولاه، لا كما يحب هو، فهو- سبحانه وتعالى- القاهر فوق عباده.. لم يأذن لأحد أن يتدخل فى نظامه وملكه.. وجعل "كلٌ ميسر لما خلق له".. من الذى يدرينا أن هذا الذى لا نحب هيأته أو سلوكه يربى ويبنى ويشيد؟؟..

الإمام العظيم الشيخ عبد الوهاب الشعرانى، كان من ضمن شيوخه ومربيه: مجاذيب يهرفون بما لا يفهمه الناس، ويفعلون ما قد يُنكر عليهم، ويبدو من ظاهرهم ما قد يشمئز منه البعض.. ومع ذلك فهم من شيوخه الذين ساهموا فى تشييد بنائه.. ذلك الصرح الصوفى العظيم فى كل زمان، المسمى: عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه..

وكان الشيخ عبد السلام بن مشيش معتزلا فى قمة الجبل.. لكنه خرّج للدنيا من أنارها كنور الشمس.. سيدى أبو الحسن الشاذلى، تلميذه الوحيد، الذى أصلح الله به وبمدرسته ما لا يحصى عددهم إلا الله.. ولا تزال الطرق الشاذلية فى انتشار ورسوخ فى جميع أنحاء الدنيا..

لقد علمنا معلم الإنسانية- صلى الله عليه وسلم- أن نتأدب مع الله ومع خلقه، وألا نتعدى حدودنا فنهلك.. وهذا من أعظم صفات التربية الصوفية السليمة: لا تشغل نفسك بعيوب الناس، وكن بعيوبك منشغلا.

كان عبد الله ذو البجادين- رضى الله عنه- من أولئك الذين تمجهم الأعين.. كان عاريا إلا من خرقة يغطى بها عورته، وأخرى على

كتفه.. أحبه رسول الله وأمره أن يلزم بابه..

وكان عبد الله يرفع صوته بالذكر فى المسجد– كهيئـة المجـذوبين– حتى أن عمر– رضى الله عنه– قال لرسول الله: أمراء هو يا رسول الله؟

فأجابه صلى الله عليه وسلم: "بل هو أحد الأواهين"[(١)].

كم تلقى كبار رجال الله وأحبابـه وكمـل العـارفين مـن إسـاءات وافتراءات بسبب أخذ البعض بظاهرهم، ومسارعتهم إلى الحكم علـيهم، كالشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى، وأبو يزيد البسطامى، والشيخ عبـد الوهاب الشعرانى، وابن الفارض، والحلاج..

ولا يـزال هـذا دأبهـم، ودأب المنكـرين علـيهم إلى أن يـرث الله الأرض ومن عليها..

أناس أخلصوا لله، وشغلوا أنفسـهم بـه.. فلـم يبـالوا بغـيره، ولم يهمهم– لحظة– موقعهم فى أعين الناس، فهم فى ترقٍ دائم ومستمر..

وآخرون تركوا عيوب أنفسهم، وانشغلوا بهـؤلاء.. يبحثـون عـن مسالبهم.. ويتخذون منهم مادة للسخرية وسوء الظن..

اللهم لا تجعلنا من الفريق الثانى فنشقى!.

❋ ❋ ❋

---

(١) خلاصة تجارب الصالحين، محمد خالد ثابت، ص١٢٥.

دفاع الإمام عن رجال الله

كتب الإمام كثيرا عن رجال التصوف.. ورد على ما أثير حولهم من افتراءات.. من ذلك ما قال فى حق الحلاج، نافيا عنه ما نسبوه إليه من القول بالحلول والاتحاد.. قال فى "قضية التصوف":

[إنها هذه الكلمات التى يعزونها إلى الحلاج رضوان الله عليه، أو إلى غيره.. لا توجد فى كتاب من كتبه، ولم يخطها قلمه.. فقد اخترعوها اختراعا، ثم وضعوها أساسا تدور عليه أحكامهم بالكفر والإضلال، ويكفى أن يتشبث بها إنسان فيكون فى منطق البحث غير أهل للثقة.] (١)

ثم يزيد من دفاعه عن الحلاج فى موضع آخر من نفس الكتاب فيقول:

[الآيات القرآنية التى ذكرناها هدفها أن (تدفع الإنسان) إلى الشعور بقيومية الله سبحانه وتعالى.. أن يفر إلى الله فى كل أمر من أموره، وأن يسمو بنفسه حتى يتحقق بأن لا إله إلا الله.

(١) قضية التصوف، ص٢٥٢.

وما فعل الصوفية أكثر مـن ذلـك. إنهـم مهتـدون بهـدى القـرآن والسـنة، يريـدون للإنسـان أن يكـون ربانيا. فإذا ما استمر الكثير مـن النـاس يخلـدون إلى الأرض، وينظرون دائما إلى أسفل، فليس ذلـك ذنـب الصوفية، فقد أدوا واجبهم نحـو التوجيـه إلى الله خـير أداء.

أمـا إذا لم يكتـف بعـض الأفـراد بـالإخلاد إلى الأرض، وبـالنظر إلى أسـفل، وأخـذوا يهـاجمون مـن يـدعونهم للتطلـع إلى السـماء، ويوجهـونهم إلى الله تعالى، فهؤلاء إنما يحاربون الله ورسوله.. وقد نتساءل: فيم إذن حوكم الحلاج وقُضى عليه بالقتل؟..

(ثم يذكر أسبابا سياسية، ويقول:) مـا كـان مقتـل الحلاج دينيا قط. كلا، وإنما كان سياسيا بحتا.] (١)

ويدافع أيضا عن الشيخ الأكبر وابن الفارض، ثم يختم بقوله:

[أما الإمام اليافعى- رضوان الله عليه- فإنه يقول عن خصوم سيدنا محيـى الـدين: "إن حكمهـم حكـم ناموسة على جبل تريـد إزالتـه مـن مكانـه، وتـذهب

(١) قضية التصوف، ص٢٥٧.

الـريح بـأمم مـن النـاموس، وتبقـى الجبـال شـوامخ راسيات، بها تثبت الأرض، وبها يحفظ ميزان الدنيا".

والرأى الذى لا يتأتى غيره من المنصـف.. هـو مـا قاله الإمام الشعرانى عن الصوفية عامة، وعـن سـيدنا محيى الدين خاصة:

"ولعمـرى إن عبـاد الأوثـان لم يجـرءوا علـى أن يجعلـوا آلهـتهم عـين الله، بـل قـالوا: مـا نعبـدهم إلا ليقربونـا إلى الله زلفـى. فكيـف يظـن بأوليـاء الله أن يدعوا الاتحاد بالحق سبحانه وتعـالى. هـذا محـال فـى حقهم رضوان الله عليهم.] [1]

* * *

إن مـن ضـاق صـدره بالتصـوف، وراح يرمـى شـيوخه وفتيانـه بالسوء.. لن تجد شيئا يجدى معه، لأنه صاحب هوى لا طالب حقيقة..

أما من يريد صادقا أن يعرف.. إن بحث عرف، وفهّمـه الله، ونـوّر قلبه، وفتح عليه.. على قدر طلبه وبحثه..

ولقـد وضـع العـارف الكـبير الشـيخ داود بـن مـاخلا القاعـدة الصحيحة التى يجب أن نتناول بها أخبار وأحوال هذه الطائفة (الصوفية)

---

(١) قضية التصوف، ص ٢٥٨.

فقال:

[ديننا هذا قسمان:

ظاهر علم، وباطن حقيقة.

فظاهره مضبوط بالأصول والنقول.

وباطنه مضبوط بأنوار القلوب.

فمن أتاك بشيء منه فاستشهد عليه بما هو منه.

فالظاهر بشواهده، والباطن بشواهده.

فمن قبل شيئا من ظاهره بغير نقل زل.

ومن قبل شيئا من باطنه بغير شهود قلب ضل.] (١)

* * *

كرامات الأولياء

ولقد وقع أيضا بعض المدافعين عن التصوف فى خطأ ستر الكرامات التى منّ الله بها على أوليائه، تثبيتا لهم، وتعريفا للناس بقدرهم حتى يقتدوا بهم.. ظنا منهم أن ذلك يقرب منكرى التصوف منه.. ولكن هيهات.. فمن كره التصوف كرهه من ألفه إلى يائه.. ولن يرضى عنك إلا إذا تحولت إلى فكره ومذهبه..

لذلك استفتح الشيخ الإمام كتابه "المدرسة الشاذلية" – بعد المقدمة مباشرة– بذكر كرامة لأبى الحسن الشاذلى، تشرح كثيرا مما يقال

---

(١) خلاصة تجارب الصالحين، ص١٣١.

بين السطور، ومما لا يفقهه إلا من أراد الله تفهيمه وتعليمه.. قال:

[يقول الشيخ أبو العباس، رضى الله عنه: كنت مع الشيخ أبى الحسن بالقيروان، وكان شهر رمضان، وكانت ليلة جمعة، وكانت ليلة سبع وعشرين.

فذهب الشيخ إلى الجامع، وذهبت معه، فلما دخل الجامع، وأحرم، رأيت الأولياء يتساقطون عليه، كما يتساقط الذباب على العسل.

فلما أصبحنا وخرجنا من الجامع قال الشيخ: ما كانت البارحة إلا ليلة عظيمة، وكانت ليلة القدر، ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: يا علىّ، طهر ثيابك من الدنس، تحظ بمدد الله فى كل نفَس.

قلت: يا رسول الله، وما ثيابى؟

قال: اعلم أن الله قد خلع عليك خمس خلع: خلعة المحبة، وخلعة المعرفة، وخلعة التوحيد، وخلعة الإيمان، وخلعة الإسلام.

فمن أحب الله هان عليه كل شىء.

ومن عرف الله صغر لديه كل شىء.

ومن وحّد الله لم يشرك به شيئا.

ومن آمن بالله أمن من كل شىء.

ومن أسلم لله قـل مـا يعصـيه، وإن عصـاه اعتـذر إليه، وإن اعتذر إليه قبل عذره.

ففهمت حينئذ معنى قوله عز وجل:

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾] [1]

ثم نراه بعد صفحات من ذكر هذه الكرامة يقول:

[إن الـذين ينكـرون خـرق العـادات، وينكـرون الكرامات لأولياء الله، إنما ينكرون شيئا أثبتتـه تجـارب الإنسانية، وأثبته القرآن الكريم، وأثبته جمهـور الأمـة، وقد رأيـت أنـا خـرق العـادات بنفسـى وبعينـى كمـا رويت سابقا.. [2]

من أجل ذلـك أثبـتّ مـا أثبـتّ فـى الكتـاب مـن كرامات أبـى الحسـن، وبدأتـه بعـد المقدمـة مباشـرة، بكرامة من كراماته، رواها أقرب تلاميذه ومريديه إليه وهو القطب الكبير أبـو العبـاس المرسـى الـذى كـان شاهد عيان فيها.] [3]

* * *

(١) المدرسة الشاذلية، ص١٥.

(٢) سيجىء ذكر ذلك فى الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى.

(٣) المدرسة الشاذلية، ص١٦٧.

فى رحاب السيد البدوى

كان الشيخ الإمام يزور الأولياء -أحياء ومنتقلين- ويحضر موالدهم ما وجد إلى ذلك سبيلا.. فإن موالد الأولياء ركن ركين فى التراث والتربية الصوفيين..

استمع إليه وهو يحكى هذه القصة عندما كان مسافرا إلى طنطا لحضور مولد السيد البدوى رضى الله تعالى عنه:

[صلينا العصر فى رحاب مولانا الحسين رضوان الله عليه، وكنا على موعد فى المسجد المبارك، ثم يممنا شطر محطة مصر لنأخذ القطار إلى بلد القطب الملثّم.

كنا نستقبل فى المساء الليلة الكبرى لمولد السيد البدوى رضى الله عنه.

وركبنا القطار فى صعوبة، وحمدنا الله على أن وجدنا فى القطار مكانا للوقوف. وقفنا لنسير مع الزمن متحدثين تارة وصامتين أخرى، وكلنا أمل فى أن نحظى بليلة تتسم بالإشراق وتفيض بالمدد فى رحاب شيخ العرب..

وسار القطار.

وكان فى مواجهتنا -جالسا- رجل ريفى تبدو عليه

سمات الصالحين، يلبس جلبابا من الصوف، وعلى رأسه عمامة، وعلى جبهته علامة الإقبال على الصلاة.

وكان على يمينه سيدة ريفية هى الأخرى، لعلها أخته أو زوجته، فقد كان يتحدث إليها فى ألفة بادية..

وراقنى منظره، منظر البراءة والسماحة، وتعلقت عيناى به.. ويبدو أنه وصل فى حديثه مع السيدة إلى نهاية قصة، أو خاتمة حديث، فأخذ يدور بوجهه فيمن حوله، ثم نظر إلىّ، فمد عينيه نحوى.. وبدا عليه الاهتمام..

وأردت أن أنهى هذا الوضع، فاتجهت إلى صاحبىّ أتحدث إليهما متكلفا الحديث، وكان أحدهما بجوار الرجل، فانتهز الرجل فرصة صمت منا، واتجه إلى من بجواره قائلا له: بشر صاحبك -مشيرا إلىّ- بالحج هذا العام. وأخذت الموضوع على أنه فأل حسن..

ومضت الأسابيع والشهور، وقرب موعد الحج.. فلم أحرك ساكنا، وكأنى بموقفى هذا أتحدى نبوءة هذا الشيخ.. ثم انتهت المدة، وضعف بانتهائها الأمل فى أداء فريضة الحج هذا العام، وإن لم يضعف الأمل فى أن تحدث معجزة.

وبدأت أفواج من استجابوا للأذان بالحج تتجه نحو الأرض المقدسة، تحييهم الزغاريد، وتودعهم الدعوات..

وذات يوم.. قبل سفر آخر فوج، اتصل بى أحد الأصدقاء، يستفسر عن أسماء كتب الشيخ عبد الواحد يحيى[1] وعن كيفية الحصول عليها ثم قال: إن السيد حسن عباس زكى يحب أن يشترى بعضها أو كلها إذا أمكن.. وفى عصر اليوم نفسه سلمت صاحبى مجموعة الكتب. وفى مساء اليوم نفسه أيضا مرّ علىّ صاحبى قائلا: إن السيد الوزير يحب أن يراك.. ولم أكن قد التقيت به من قبل.[2]

التقيت بالسيد الوزير، وأخذنا نتحدث عن الشيخ عبد الواحد يحيى، ثم ذهب السيد الوزير ليجيب نداء التليفون، وأراد صاحبى ألا يمر الوقت فى صمت..

---

(١) هو الفيلسوف الفرنسى "رينه جينو" الذى أسلم وتسمى بعبد الواحد يحيى، وسلك الطريقة الشاذلية، وأصبح من كبار العارفين.. سكن بمصر وتزوج بها، وبها كانت وفاته ودفنه فى يناير سنة ١٩٥١م.. وقد كتب عنه الدكتور عبد الحليم محمود فصلا مهما فى كتابه "قضية التصوف".

(٢) هو السيد حسن عباس زكى وزير المالية آنذاك، ومن رجال الطريقة الشاذلية ومن العارفين، انتقل إلى جوار ربه فى أواخر سنة ٢٠١٤م.

فقال كعادة الحجاج:

- ألا ترغب فى شىء من الحجاز؟

فرأيت نفسى مندفعا إلى أن أقول له فـورا، وكـأنى مسخر بقوة لا قبل لى بردها:

- نعم، أرغب فى أمر سهل بالنسبة لـك، وأرجـو أن تقوم به مشكورا. أرجوك أن تقـف أمـام الضـريح الشريف وتقول: إن عبد الحلـيم يقبـل اليـد الشـريفة، ويرسـل تحياتـه، ويبلـغ أشـواقه إلى سـيده رسـول الله صلى الله عليه وسلم، ويرجـو منـك يـا أكـرم الخلـق على الله أن تدعوه لزيارتـك، فإنـك إن فعلـت زالـت كل العقبات، وأتى يسعى يلبى النداء.

قال صـاحبى فـى نـوع مـن التأمـل البـادى علـى ملامحـه: أرجـو أن تكـون قـد اسـتُجيبت، ولعلـها استجيبت.

وانتهى أمير الحج من الحديث التليفونى، فقد كـان السيد حسن عبـاس زكـى هـو أمـير الحـج فـى ذلـك العام، وجاء فذكر له صاحبى ما تحدثنا به فـى غيبتـه، فقال: إنه يدعو الله أن يتحقق الرجاء. وانتهى الحديث عند ذلك.

ثم اتفقنا على أن نذهب معا إلى منزل الشيخ عبد الواحد يحيى لزيارة أسرته، وليأخذ السيد الوزير صورة أوضح عن حياته..

إن شيئا من آثار الشيخ -رضوان الله عليه- ما زال باقيا، لا شك، فى هذا المكان. وخُيل إلىّ حينئذ أن السيد الوزير بروحه الشفافة، وبروحانيته القوية، وببصيرته النافذة، ينطلق مسترشدا بالأثر إلى صاحب الأثر. إن عبير الشيخ الزكى ما زال يملأ أرجاء المكان، ولا يزال الأريج الطيب يعطر الجو..

وافترقنا، وفى اليوم التالى -الخامس قبل سفر آخر فوج- بينما أنا جالس فى كلية أصول الدين مشتركا فى أعمال الامتحان، إذا بالنداء: احضر لاتخاذ الإجراءات للحج.. فقلت: صلوات الله وسلامه عليك يا أكرم الخلق على الله.] [١]

* * *

الطريق الصوفى

لقد وهب الشيخ حياته للتصوف، تعريفا به، وإزالة للشبهات عنه،.. لأنه الطريق لإصلاح كل شىء.. كل شىء بلا استثناء!.

---

(١) قضية التصوف، ص٣٦٣- ٣٦٧. باختصار يسير.

بل إن السر فى ذلك التوفيق الكبير الذى صاحب حياته كلها إنما يرجع لمنهج التصوف الذى اتبعه، وأخذ نفسه به، وأخلص له..

وقد رسم للمريدين طريقه فقال:

[لابـد فـى التصـوف مـن شـرط جـوهرى، هـو "التأثير الروحى"، أو بتعبير أدق "البركة"، وهـى لا تتأتى إلا بواسطة "شيخ"..

يجب على المريد أن يتأدب بشيخ، فـإن لم يكـن لـه أستاذ لا يفلح أبدا.

ومـن هنـا كانـت "الطـرق"، ومـن هنـا كانـت "السلسلة"، وهل السلسلة إلا بركات تنتقل من شيخ إلى مريد يوشك أن يصـبح شـيخا، فيـؤثر بـدوره فـى مريد أو مريدين.

إن التصوف ليس عملا علميا ولا بحثا نظريـا. إنـه لا يُتعلم بواسطة الكتب على الطريقة المدرسية، بل إن ما كتبه كبار مشايخ الصوفية أنفسـهم لا يسـتخدم إلا كحافز مقوّ للتأمل.

والإنسان لا يصير- بمجرد قراءته- متصوفا. علـى أن ما كتبه كبار المتصوفة لا يفهمه إلا مـن كـان أهـلا لفهمه. ولأجل أن يسير الإنسان فى طريـق التصـوف

لا بد له من:

١- استعداد فطرى خاص، لا يغنى عنه اجتهاد أو كسب.

٢- الانتساب إلى سلسلة صحيحة، إذ أن البركة التى تحصل من الانتساب إلى السلسلة الصحيحة هى الشرط الأساسى الذى لا يصل الإنسان بدونه إلى أى درجة من درجات التصوف ، حتى البدائية منها.

٣- ثم يأخذ المتصوف -الطيب الفطرة- الذى باركه شيخه فى الجهاد الأكبر، التأمل الروحى، وفى الذكر، أى استحضار الله فى كل ما يأتى وما يدع، وفى تركيز الذهن فى الملأ الأعلى، فيصل -موفقا- من درجة إلى درجة حتى يصل إلى أعلى الدرجات، وهى حالة تسمو على حدود الوجود المؤقت فيصبح ربانيا.

ذلك هو الصوفى الحق.] [1]

* * *

الصوفى المجاهد

التصوف كمال فى ممارسة الحياة فى شتى وجوهها.. وعندما نقول "التصوف" إنما نقصد "حقيقة التصوف"!.. لذلك نجد كبار رجاله لا يقصرون فى شىء.. ويؤدون ما عليهم فى كل شىء..

(١) قضية التصوف، ص٣٥٩.

انظر إلى خطابه فى مجلس الشعب، فى سعيه الدائب لتطبيق الشريعة الإسلامية، الذى جعله ضمن أهدافه المعلنة، وظل يناضل من أجله إلى آخر يوم فى عمره:

[إن الإسلام ليس من نوع القضايا المطروحة لتكون تحت رحمة المناقشات باسم الديمقراطية.

وليس الإسلام فى موقف الانتظار لما تُسفر عنه هذه المناقشات من تأييد أو معارضة.

إن عقيدة الإسلام لا تُفرض لأنه لا إكراه فى الدين، ولكن من قبلها مختارًا فآمن بها كان عليه أن يلتزم شريعتها، وليس له أن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض.] (١)

لقد عرف كل من رآه أو عامله أن هذا رجل لا مأرب له فى الدنيا، ولا يعبأ بمنصب ولا يحرص على مال، ولما جاءته المناصب، لم تغير فيه شيئا.. وجعل كل همه أداء الأمانة التى حمّله الله إياها!.

قال الدكتور رؤوف شلبى:

[ربع قرن لم يعهد تلاميذ الشيخ أنه تغير قيد أنملة عن سمته الذى عُهد عليه، فهو لا يزال فى بيته ٢٤ شارع

(١) الإمام النوارنى الزاهد، ص ١٩.

العزيز بالله بالزيتون. إنه سكنه هو، قد ملأه بالركوع والسجود، وملأ أجواءه بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وسعت إليه آلاف أقدام الطالبين والمحتاجين، وأهل الرأى والجاه والسلطان من بعيد ومن قريب.

ولكن البيت كما هو منذ سكنه إثر عودته من فرنسا عام ١٩٤٢م إلى أن صار للمسلمين إماما وللأزهر شيخا.

وصل إلى أعلى المناصب فما اقتنى عمارة ولا بنى فيللا.. بينما نجد الكثيرين، حتى من صغار العلماء، يقتنون العمارات الشاهقة والفيللات الضخمة..] (١)

كانت تأتيه الأموال الطائلة، فلم يدخِّر ولم ينفق على زينة الدنيا، وإنما أنفق بسخاء على الفقراء والمحتاجين، يجرى عليهم الرواتب الشهرية ولا يتأخر عن نجدة ملهوف.

[باع قطعة أرض من أطيانه التى ورثها ليعطى ثمنها كاملاً لأسرة كانت فى حاجة إلى هذا المبلغ الكبير الذى كان لا يملكه فى ذلك الوقت.] (٢)

* * *

(١) شيخ الإسلام ص ١٨و ص٦٣٠.

(٢) نفس المصدر ص ٦٣٠.

كيف تأتى له أن يقوم بواجباته -وهى كثيرة- خـير قيـام دون أن يرتبك أو يطغى جانب على غيره من الجوانب. إنه التوفيق الإلهى والمـدد الذى يمد الله به الصادقين.

كيف اجتمع فيه فى آن واحد العالم، والأستاذ الجامعى، والمؤلف، والوزير، وشيخ الأزهر، والإدارى الناجح، والمجاهد، والمنافح عن قضـايا المسلمين فى الدنيا كلها.. والسائح فى بقاع الأرض.. والـزوج، والأب، والشيخ الصوفى المربى، والعابد الزاهد..؟؟

إن الـذين سـعدوا برؤيتـه، سـواء علـى شاشـات التلفـاز أو فـى غيرها، يتذكرون كيف كانت المسبحة تدور بـين كفيـه، لا تتوقـف حتـى وهو يتحدث فى شتى المواضيع.. ولقد قالوا إن الذاكر إذا اسـتغرق فـى الذكر وأدمنه يصل إلى مرتبة يكون فيها قلبه ذاكـرًا علـى الـدوام.. فـإذا كان القلب ذاكرا.. تحركت الجوارح بحركته!.

سمعت والدى -رحمه الله- يقول عنه إنه ما كان يبالى -وهو وزير للأوقاف أو شيخ للأزهر- إذا رأى فى مسجد جماعة تذكر الله أن ينضـم إليهم وينخرط معهم فى الذكر.

❊ ❊ ❊

قال الأستاذ على عبـد العظـم إن "حديثـه عنـه لـيس نقـلا عـن المصادر التاريخية، ولا عن الأصدقاء والأصحاب، ولكنـه عـن مشـاهدة

مستمرة، وصداقة طويلة، ومعرفة أكيدة، ومودة ثابتة " .. فيصف هذه الربانية التى اتسمت بها حياة الشيخ بقوله:

[ما رأيت ذكاءً فى صفاء ولا صمتًا فى بيان ولا علما فى تواضع ولا جلالاً فى تسامح كما رأيته فى الشيخ الإمام.

تخلق بالأخلاق القرآنية، وتمسك بالآداب الصوفية، وعاش مع الناس فى حياتهم العادية، وإن كان بعيدًا عنهم فى سبحاته الروحية، يطيل الصمت إلا عن ذكر الله، ويكثر التأمل ويطيل التفكير.

وهو مع هذا يجيد الاستماع حيث تدور من حوله المجادلات، وتصطدم الآراء، وتتشعب الأفكار، وهو صامت، فإذا تحدث جاء بالقول الفصل، والكلام الجزل، والحجة القاطعة، فى أوجز بيان وأحكم أسلوب.

فإذا لج المجادلون فى المراء تركهم وما يشاءون، وعاد إلى صمته المهيب مشغولا بالذكر أو بالفكر أو بالدعاء.

امتاز بعفة اللسان والتسامى عن اللغو، والقصد فى الحديث، كما امتاز بمحبة الصالحين، والسعى

إليهم أحياءً، وزيارة أضرحتهم أمواتًا، ودراسة آثارهم العلمية والسلوكية الباقية، فهو يعيش أبدًا فى جـوهم العبق وحياتهم النقية المشعة بالصفاء.

وفى الأزمات يتجلى فيه مضـاء العزيمـة، وجـودة الرأى، وسرعة البديهة، وقوة الصبر والمصابرة، وطول الأنـاة فـى أدب جـم، وتواضـع كـبير، يزينـه الوقـار والجلال.] [1]

وقال العارف بالله الشيخ محمد زكى إبراهيم:

[يُعرف الدكتور عبد الحليم محمـود- فـى المحيط الروحى فى مجـال المقـبلين علـى الله طـلاب الحقـائق والباحثين عن مشارق الأنوار وأسرار الغيوب– بكنية "أبو العارفين".

ويعرف أيضا أنه "غزالى مصر" فى هذا العصر.

وهو فى ذاته ظاهرة صوفية غير مكررة، بما يفـيض به من القيم، وما يُفاض عليه من المواهب، وما يفسح له الله تعالى من الوقت والمدد، فيترقرق إنتاجه سلسـلا عذبًا مندمجًا فـى رقـة، رابيًـا متلاحقًـا فـى قـوة، بـين منطوق ومكتوب يتلاحق.

(١) مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن، ص٤٢٨.

فيذكرنا بأعلام السلف الصالح، ويطمئننا على مستقبل الربانية المقدسة، ويعطى الناس مثلا حيًا فى كرامات الأولياء.

قارئ الدكتور عبد الحليم، أو سامعه، لا يحس الصنعة فيما يقرأ له أو يسمع منه، ولكنه يحس القلب والعاطفة والعقل والإيمان، ويبصر الأدب والفضل والتواضع والثقة بلا حدود.

كل ذلك ينقدح فى ومضات ولمحات ولفتات، وملاحظ وقواعد وأصول تهتز بالحياة وتنفعل بالعمل والأصالة والمعرفة والصلة بالله، والغيرة على محارمه، ويحس المرء منها ابتغاء رضوان الله.] (١)

❋ ❋ ❋

درس بليغ

ومن الحاكايات التى تبين جوانبا مضيئة من حياته الحكاية التى رواها الدكتور محمد رجب البيومى تحت عنوان: "درس بليغ" قال فيها:

[كان الشيخ عبد الحليم على معرفة جيدة بمن يمتّون للوعظ بالمساجد، لأنه يتحسس أخبارهم فى

---

(١) الإمام النورانى الزاهد ص ١٦.

يقظة، فإذا علم من أحدهم مثابرةً وكان دءوبًا شجعه وزاره فى مجلس وعظه، وإذ لمس تقصيرًا لدى بعض من يكتفون بالرسميات دون إخلاص نَبّهَهم بالحسنى إلى ما يجب نحو المسلمين من إرشاد وتوجيه.

ومن طرائفه النادرة أن أحد المنتسبين إلى طريقة صوفية ويقوم على مشيختها، وله وجاهة فى محيطه وأسرته، جاء إليه ناقمًا يشكو الشيخ صالحًا الجعفرى خطيب الجامع الأزهر، والداعية الإسلامى الشهير، لأنه يجمع نفرًا من أتباع الشاكى فى حلقته كى يقرأ عليهم الصلوات الإدريسية بدل الأوراد الشاذلية.

واستمع الشيخ إلى الشكوى، فكتم تأففه فى داخله، وقال للشاكى: متى سيلقى الشيخ صالح درسه المقبل؟

فقال: علمت أنه سيلقى درسًا بالأزهر بعد صلاة العشاء هذه الليلة. فقال الشيخ: سأكون لديه، فتعال معى، لنتحدث معه.

وحان الموعد، فذهب الإمام الأكبر متواضعًا ليجلس فى أقصى الحلقة مستمعًا، بدون أن يشعر الشيخ صالح بمقدمه، وكان الشيخ مُوَفَّقًا كل التوفيق

فيما أبدع من شرح، حيث فتح الله عليه بما أنعش السامعين، وجذبهم إلى مورده الصافى مُسترسلاً فى روائع الآيات ورقائق الأخبار.

ثم انتهى الدرس بعد ساعة ونصف، فتوافد السامعون فى طابور على الشيخ يلثمون يديه كعادتهم معه.

وانتظم الإمام الأكبر فى الصف، ووراءه من شكا الرجل الكبير، ظانا أن الإمام سيفاجئ الداعية بما لا يتوقع.

فلما دنا من الشيخ صالح، قبل كفه ومضى، فصاح بعض الحاضرين ينبه الشيخ صالح بأن الذى قبّل كفه هو الإمام الأكبر، فصاح الشيخ صالح متأثرًا ينطق بلا إله إلا الله كمن يستجير، ثم جرى خلف الشيخ يعانقه قائلاً: مَنْ أنا ياسيدى بجوارك؟ كيف غفلتُ عنك وأنت تقبل يدى؟. ثم انحنى على كفّ الشيخ عبد الحليم لاثمًا عدة مرات.

وخرج الإمام ليقول لصاحبه (الشاكى):

لماذا لا تجمعون أتباعكم كل ليلة وتُحضرون من

يفسر لهم كتاب الله إذا كنتم عاجزين؟! لقد جئتُ بك هذه الليلة لتتعلم من الشيخ، هل مشيخةُ الطريق وجاهةٌ أو أنها رسالة ذات هدف؟ أنتم بتقاعسكم عن هداية الناس تصدون عن سبيل الله! ثم تنقدون من يقوم بواجبه عن قناعة وإيمان..

أنتم فى وادٍ وهو فى وادٍ.] (١)

* * *

من كراماتـــــه

يظن البعض أن ذكر كرامات الأولياء من أحاديث الخرافة أو مما يقلل من القيمة العلمية للكلام، وهذا خطأ كبير، فالكرامات من العلم الذى أظهره الله ليُنتفع به.. وإنكارها نقص فى العلم!.

والإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود الذى درس الفلسفة وأتقنها حتى بز الفلاسفة، والذى رد على مختلف المذاهب العقلانية والمادية بالعقل وبالمنطق، وكشف عوارها.. هو نفسه الذى يثبت أيضا بالعقل وبالمنطق ثبوت الكرامات لأولياء الله..

فى واحد من كتبه ذكر لنفسه كرامتين ليدلل على صدق ما ذهب إليه، قائلا:

---

(١) من أعلام العصر، د. محمد رجب البيومى، ص ٢٩٥.

[.. أضيفها مُعلنًا فى غير كبرياء ولا فخر بأننى من الأشخاص الذين لا تلعب بهم الأوهام ولا التخيلات، ولم أكن فى يوم من الأيام فريسة أباطيل أو خرافات، ولقد باعد الله سبحانه –وله الفضل والمنة– بينى وبين التأثر بالإيحاء الموهم. فإذا أضفت أسبابًا خاصة فإنما أضيفها عن يقين وثقة، ولعل الله يهدى بها بعض من لايزال فى قلوبهم الاستعداد للخير، وفى أرواحهم أسس الاهتداء إلى الحق.]

ثم يحكى ما وقع له وشاهده بنفسه فيقول:

[فى فترة من الفترات ابتلانى الله بموضوع شق على نفسى وعلى نفس المحيطين بى، واستمر الابتلاء مدة كنا نلجأ فيها إلى الله طالبين الفرج.

وذات يوم أتى عندى بعض الصالحين –وكان على علم بهذا الابتلاء– وأعطانى ورقة كتب فيها صيغة من صيغ الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: اقرأها، واستغرق فيها، وكررها منفردًا فى الليل لعل الله يجعلها سببًا فى تفريج هذا البلاء.

والصيغة هى:

اللهم صل صلاة جلال وسلم سلام جمال على حضرة

حبيبك سيدنا محمد، واغشه اللهم بنورك كما غشيته سحابة التجليات فنظر إلى وجهك الكريم، وبحقيقة الحقائق كلم مولاه العظيم، الذى أعاذه من كل سوء.

اللهم فرج كربى كما وعدت: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ وعلى آله وصحبه آمين.

واعتكفت فى غرفة بعد صلاة العشاء. وأضأت نور الغرفة، وأمسكت الورقة بيدى وأخذت فى تكرار الصيغة واستغرقت فيها وإذا بى أرى فجأة أن الحروف التى كتبت بها الصيغة مضيئة تتلألأ نورًا، ومع أن الغرفة كانت مضيئة فإن الحروف كانت تتلألأ نورًا فى وسط هذا النور.

ولم أصدق عينى فغمضتهما وفتحتهما عدة مرات فكان النور على ما هو فوضعت الورقة أمامى ووضعت يدى على عينى أدلكهما وأدعكهما، ثم فتحت عينى فإذا الحروف على ما هى عليه تتلألأ نورًا، وتشع سناء.

فحمدت الله وعلمت أن أبواب الرحمة قد فتحت، وأن هذا النور رمز ذلك، وفعلا أزال الله الكرب وحقق الفرج بكرامة هذه الصيغة المباركة.

وأمر آخر من خوارق العادات شاهدته بنفسى:

فى ذات صباح كنت جالسًا فى المنزل، فى غرفة المكتب، كعادتى، وكنت فى تلك اللحظة مطأطئ الرأس، ثم رفعت رأسى ناظرًا أمامى وإذا بى أجد أمامى إنسانًا فأخذت فى تأمله دون أن أشعر قط بخوف أو فزع.

كان طويلا، أقرب إلى النحافة منه إلى السمنة يميل لونه إلى السمرة، وعلى رأسه شال أبيض أو ما يسميه الحجازيون "الغطرة". وكان فى وقفته منحنيًا قليلا، وقد تأملت ملابسه أيضًا فى تفاصيلها وشكلها.

لم يتحدث معى، ولم أتحدث إليه.

وبعد فترة ونحن على هذا الوضع، أنظر إليه فى تحديق، ويمد عينيه إلىّ فى نظرات ثابته أخذ يشف شيئا فشيئًا، وألاحظ أنا فى وضوح التدرج فى هذه الشفافية، وانتهت الشفافية بزواله تماما دون أن يتحرك من موضعه، ذلك ماشاهدته بنفسى. وماذا يكون خرق العادات غير هذا؟.] (١)

* * *

---

(١) قضية التصوف، د. عبد الحليم محمود، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية، ١٩٨٨، ص ١٦٥ – ١٦٧.

الفصل الخامس

الختـــــام



وفاتــــه

بعد عودة الشيخ الإمام من رحلة الحج فى ١٦ من ذى القعدة ١٣٩٨هـ، الموافق ١٧ من أكتوبر ١٩٧٨م قام بإجراء عملية جراحية بالقاهرة فتُوفِّى على إثرها، وكان قد أخبر عن دنو أجله قبل عام..

فبينما هو بالمدينة المنورة بأنوار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم التقى بصديقه وحبيبة الشيخ أحمد عبد الجواد –صاحب كتاب الدعاء المستجاب– وقال له: ستأتى لتزورنى فى قرية السلام العام القادم إن شاء الله.

وفى الموعد الذى ضربه له، جاء الشيخ أحمد عبد الجواد إلى قرية السلام بالشرقية لتشييع جنازة صاحبه.. (١)

وتلقت الأمة الإسلامية نبأ وفاته بالأسى، وصلى عليه ألوف المسلمين الذين احتشدوا بالجامع الأزهر ليشيعوه إلى مثواه الأخير، تاركًا تراثًا فكريا زاخرا ، ما زال يعاد نشره وطباعته، وتم دفنه بضريح بناه شقيقه الشيخ عبد الغنى بجوار مسجد القرية بالشرقية، بعد أن تبرع الإمام بجميع ما يملك، ومات دون ان يترك شىء سوى سيرته العطرة، ويتم الأحتفال بذكرى الإمام كل عام بقريته بحضور كوكبة من علماء الأزهر ومحبى الإمام من جميع انحاء العالم.

* * *

---

(١) الإمام النورانى الزاهد ص٤٣.

وصف العارف بالله الشيخ عبد الغنى النابلسى -فى قصيدة له يُتغنى بها- أحوال أهل المحبة؛ من غلبت عليهم محبة الله فشُغلوا بها عن الدنيا، والقصيدة مطلعها يقول:

نسمات هواك لهـــا أرج تحيـا وتعيش بها المهـج

فيقول فى إحدى أبياتها عن أولئك الرجال:

دخلوا فقــراء على الدنيـا وكما دخلوا، منها خرجوا

وصدق هذا البيت على شيخنا الإمام رضى الله عنه، إذ خرج من الدنيا فقيرًا كما جاء إليها فقيرًا عُريانا.. كأنه أراد أن يتخفف من الدنيا.. ويمضى إلى ربه خفيفا!. قال الدكتور رؤوف شلبى:

[لقد أخذ نفسه بالمنهج الصارم فى التجرد، فباع ضيعة كان يملكها لتبرأ ذمته من ملكيته فى الأرض، وقال لولده الأكبر -رحمه الله- الدكتور محمد: لا تنتظر من ورائى ميراثا. وراح يوزع ماله الكثير على الطلاب المحتاجين، والأرامل والعجزة، والمرضى والفقراء، وإنه ليعطى عطاء يذهل العقول..] (١)

ويصف الدكتور رؤوف أيامه الأخيرة، وكيف أن الله سبحانه وتعالى أعطاه ما أراد، فإن لله رجالا لهم ما يشاءون عند ربهم. قال:

---

(١) شيخ الإسلام عبد الحيلم محمود ص ١٩.

[لقد سافر رضى الله عنه إلى عمرة قبيل وفاته بعدة أيام ثم عاد من بعدها ليدخل المستشفى، فكان آخر عهد له بالسفر هو زيارة النبى صلى الله عليه وسلم..

ومن قبل ذلك توفيت زوجه فى ١٨ مارس سنة ١٩٧٨م (أى قبل وفاته بسبعة أشهر)، فلم يعد -خلفه- أحد يستحق عليه معاشا.. إذ لو بقيت زوجه من بعده لكان لها معاش مستحق وكان له سمة بعد موته وذكر فى كراسات المال.

شاء الله تبارك وتعالى أن يجعل تجرده نقيا، فاستقدم من قبله زوجه حتى يطهّر اسم وليه النقى من شبهة معية المتعلقين بالدنيا ولو بالورثة المستحقين من بعدهم حق المعاش..

فلم يترك الشيخ من بعده درهمًا ولا فلسًا.. "[1].

"لقد صاحبَتْ روحه وهى تصعد إلى الله تسجيلاً له بالإذاعة عنوانه "وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد".

---

(١) نفس المصدر ص ١٩ – ٢٠.

وقد دُفن قبيل آذان المغرب، فصاحب دفنه إذاعة تسجيل نفس الحديث، فانظر كيف كانت مكرمة الله له عند خروج الروح يذاع له الحديث عن فضل الله الواسع ورحمته الفسيحة، ويتكرر إذاعة الحديث لحظة دفنه.] (١)

كان الدكتور صدقى السعدنى عضو المركز الإسلامى بلندن ممن كتب فى رثاء الشيخ، فذكر فى كلمته الزيارة الأخيرة له فى المستشفى فقال مخاطبا روح الإمام الفقيد:

[.. ورأيتك أخيرًا وقبل إجراء الجراحة القاتلة وأنت على فراش المرض مبتسما راضيا بقضاء الله وأنا أعرض فى كلمات هامسة لك بضرورة إجراء الجراحة بالخارج.. وكررت عليك فى اللقاء ضرورة الذهاب لبريطانيا مثلا وعلى نفقة المركز الإسلامى الدولى هناك الذى أقوم بالإشراف عليه، واعتذارك الرقيق بأن لديكم ما يكفى للعلاج ولكنك تفضل العلاج هنا.

وكأنك تسير سيرك الحثيث إلى لقاء ربك.. ولم

(١) شيخ الإسلام ص ٢٠ – ٢١.

أستطع إطالة الحديث متمنيا لك الشفاء، ولوجود جوقة كبيرة من الزائرين بالخارج، ومع كل هذه الأوجاع لم تتوجع، بل أخذت تحدثنى عن ثبات المشروع العظيم لإرساء قواعد الدستور الإسلامى، وهو ما يعجز عنه الكثيرون ممن تربعوا على عرش الأزهر خوفًا وتراجعًا.] [١]

* * *

توفى الإمام -شيخ الإسلام رضى الله عنه- صباح يوم الثلاثاء ١٥ من ذى العقدة سنة ١٣٩٨هـ الموافق ١٧ من اكتوبر سنة ١٩٧٨م[٢].

وكان آخر ما جرى به لسانه: الله حق.. الموت حق[٣].

وكان يوما مشهودًا فقد فيه الأزهر الأب الحانى، وفقدت فيه الأمة كلها إمامًا مخلصًا وروحًا ربانية أخذت بأيديهم إلى طريق كادت تندرس معالمه، سار عليه من قبل نبى هذه الأمة وسلفها الصالحون.

صلّت عليه الجماهير الملتاعة عقب صلاة العصر بالجامع الأزهر، ثم سارت جنازته إلى بلده بالشرقية "قرية السلام" حيث ثوى جثمانه

---

(١) انظر المقاله كاملة وعنوانها "إنا على فراقك لمحزونون" فى كتاب شيخ الإسلام ص ٦٢٥.

(٢) شيخ الإسلام ص ٦١٦.

(٣) من أعلام العصر ص ٢٩٠.

الطاهر فى أحضان معاهد العلم التى عمرّ بها الديار المصرية بما فى ذلك قريته قرية السلام.

ورثاه محبوه وعارفوا فضله.. منهم الأستاذ على عبد العظيم فى قصيدة له رائعة، منها الأبيات التالية:

عجبـا لمن ذقنـا النعيـم بقربـه ... ذقنا فنون الثكـل يوم وفاتـه

شيخ الشيوخ مضى لساحة ربه ... مستروحا بالفيض من رحماته

قد كان للإسـلام حصنا باذخا ... يدعو له ويزود عن حـرماتـه

بلغ المدى فى كل فضل سـابغ ... فأشع نورا من جميـع جهاتـه

مـلأ العيـون بسمتـه ووقـاره ... وحوى القلوب بحلمـه وأناته

ما كف عن ذكرالمهيمن لحظـة ... فى صحوه أو فى عميق سباته

ما كان يعبـد رغبـة أو رهبـة ... لكنـه عبد الإلـه لذاتـه

يبدو جلال الصدق فى كلماته ... ويشع نور الطهر فى قسمـاته

سمح اليدين بمالـه وبـجاهـه ... وبعلمـه وبنصحـه وعظاتـه

غمر الجميـع بنبـلـه وسخائـه ... فالكل مشمول بفيض هباتـه

يا من ورثت المصطفى فى هديه ... وتبعتـه مترسمـا خطواتـه

فنهـلت ثم عللت من ينبوعـه ... وقبست نور الحق من مشكاتـه

أرضيت ربك جاهدا ومجاهـدا ... فانعم مع الأبرار فى جنـاته[1]

* * *

(١) مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن، ص٤٥٧.

كتب الوالد -رحمه الله- فى رثائه مقالا بعنوان: "كان للمتقين إماما" قال فيه:

[بالأمس رحل عن الدنيا رجل من الأخيار.

رجل اتقى الله وآمن برسوله فآتاه الله كفلين من رحمته وجعل له نورًا يمشى به.

كان كالأنفاس الطاهرة الهادئة والنسمات الوادعة فى صمته وصوته وجميع سمته..

كان عظيم الصدق مع ربه ومع نفسه.

كان شجاعًا فى اختيار طريقه وفى السير على هذا الطريق. غير مُلق باله لنقد الناقدين ولوم اللائمين.

لم تكن له شخصيتان، بل شخصية واحدة اتسقت اتساقًا باهرًا مع نور الشريعة والحقيقة معًا، وكان يُذكر كلما ذُكر الإخلاص والطهر والتقى.

ذلكم هو الإمام الأكبر "عبد الحليم محمود".

عاش حياته متبتلاً مخبتًا أوابًا، وكان يحمل كل خصائص العلماء الذين كُتب لهم أن يكونوا للناس قدوة وأئمة وروادا.

كان للمتقين إماما.] [1]

* * *

الاحـتـفـال بمـولـده

ومن الصدف العجيبة أننى عندما شرعت فى إعداد هـذه الطبعـة من الكتاب، اتصل بى صديق وقال فى طيات الحديث إن مولد الـدكتور عبد الحليم محمود قد بدأ وإن الليلة الكبيرة ستكون يـوم الجمعـة القـادم الموافق التاسع عشر من رجب سنة ١٤٣٦ من هجرة أسعد الخلق صـلى الله عليه وسلم..

وقد وجدت خبر هذا الاحتفال علـى موقـع الفيسـبوك، صـفحة بعنوان "العارف بالله الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمـود، ووجـدت عليها الإعلان التالى:

(بمشيئة الله تعالي سوف يكون الاحتفال بذكري العـالم الجليـل العارف بالله الإمام الأكبرالشيخ عبد الحليم محمود شيخ الإسلام من يوم الثلاثـاء الموافـق مـايو ٥ / ٥ / ٢٠١٥ حتـى يـوم الجمعــه الموافـق ٨/ ٥/ ٢٠١٥ وذلك حســب المـيلاد الحقيقـي للإمـام الراحـل. وتبـدأ الاحتفالات بعد صلاة المغرب مباشرة، ويحيى الحفل عـدد مـن علمـاء الأزهر ورجال الدين.. وأناشيد دينية وخطب توعية فى مفهوم الإسلام

---

(١) من مقال لخالد محمد خالد بعنوان "كان للمتقين إمامًا" نقلاً عـن كتـاب الإمـام النورانى الزاهد ص٣٣.

الصحيح.. العنوان قرية السلام مركز بلبيس بمحافظة الشرقية، طريق مستطرد، مسقط رأس الإمام الراحل..

(اللهم صل صلاة جلال وسلم سلام جمال على حضرة حبيبك سيدنا محمد وأغشه اللهم بنورك كما غشيته سحابة التجليات فنظر إلى وجهك الكريم وبحقيقة الحقائق كلم مولاه العظيم الذى أعاذه من كل سوء ... اللهم فرج كربنا كما وعدت. ﴿أَمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾ وعلى آله وصحبه أجمعين ...)

وعلى الصفحة تسجيلات نادرة للشيخ الإمام.. وغير ذلك من تراثه القيم..

وعليه أيضا عدة فيديوهات من ليالى الاحتفال بالمولد.. بها تلاوة القرآن والمدائح والابتهالات.. وكلمات السادة العلماء..

وكنت أتمنى أن بكون هناك- أيضا- ما يصور أفراح الناس فى الشارع.. فموالد الأولياء يحتفل بها الشعب المصرى، منذ القدم، حبا وتعظيما وعرفانا.. فالأولياء هم رموزهم الحية الشامخة.. فى كنفهم وحدهم يجدون الفرحة والبهجة والسرور.. ويجدون على موائدهم الخير المبذول بسخاء من غير منّة، ولا غرض..

ولقد أسعدنى الحظ -فى سنة من السنين- بحضور مولده بقرية السلام، وزيارة قبره المبارك بمسجده الذى أسس بجوار المعهد الدينى هناك، وكانت روحه ترفرف عل المناسبة، فدروس العلم النورانى داخل

المسـجد، وإطعـام الطعـام بسـخاء خارجـه، وفرحـة النسـاء والأطفـال والمساكين تغمر أنحاء القرية..

فَرّحوهم وهم أحياء..

وفرّحوهم أيضا بعد الممات..

هــذا الموسّــد أمّــة مــذخورة　　أمجــاده لم يحصــها حســبانى
العالِم المفضـــال فـى أقوالــه　　وفعالـه والـروح والوجـدان
سبق الزمان بفكره حتى سما　　وعلا على الأكوان والأزمان
متــرفـعٌ حتــى عـلى آلامـه　　كالطــود تيَّاهٌ على الوديـــان

نعم..

إن أولياء الله أحياء عند ربهم..

لا ينقطع عن الناس نفعهم وإن غُيبت أبدانهم تحت التراب..

فلا تظن أن صادقًا لله يموت!!

❋ ❋ ❋

(ملحق ١)

القانون الإلهي والقانون الوضعي

بعد أن استفتح الشيخ بحمد الله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلي الله عليه وسلم قال:

" كل حضارة لها شطران: شطر مادي وشطر روحي.

المادي هو الذي يعتمد على الحس وعلى العقل، ويعتمد على المنهج السليم وهو منهج الملاحظة والتجربة والاستقراء. وهذا الشطر يتطور ويرتقي لأن له مقياس يحسم به الخطأ من الصواب. هذا المقياس هو التجربة، فكل أمر يختلف فيه العقل أو الحواس تحسمه التجربة.

ومن هنا كانت الثمرة الدائمة للحضارة هي الترقي الدائم، وقد وصل العالم الآن إلى القمر، لأن التجربة المستمرة عبر أخطاء تم تلافيها أولا بأول أوصلت الدفع الصاروخي إلى التغلب على العوائق التي كانت تثيرها الجاذبية الأرضية، واختلاف طبقات الجو، من حيث الطبيعة والمناخ والتكوين.

أما الشطر الروحي أو النظري فالأمر فيه مختلف..

وأقصد بهذا الشطر النظري: العقيدة والأخلاق، والتشريع، ونظام المجتمع، هذا الشطر لم يصل بعد إلى المستوى الحاسم في الرقي، الذي وصل إليه الشطر المادي.. ومازال فيه مستمراً.. ربما لأن من خصائص النظريات العقلية أنها لا مقياس لها. ما هو المقياس الذي

نقيس به الخطأ والصواب، فيما يتعلق بالسلوك من ناحية العقل..؟ ليس هناك مقياس.

وكذلك بالنسبة للمجتمع والتشريع والعقيدة.

ولهذا، فقد بقى هذا الشطر حتى الآن خلال تاريخ الإنسانية الطويل ظنيا.. يمكنك أن تثبته بأدلة ثم يأتي آخرون فيهدمونها..

ومنذ أيام (أرسطو) -ومقياسه الذي هو المنطق- والإنسانية تبحث بجهودها الخاصة عن مقياس للأمور النظرية، وللتشريع، وللأخلاق، ولغير ذلك.. ومنذ ابتداء العصر اليوناني قبل الميلاد والإنسانية تضع فى التشريع ونظم المجتمع وأخلاقياته نظما كثيرة، وتشريعات شتى، لا تستقر عليها سوى سنين أو قرون معدودات، ثم لا تلبث أن تهجرها..

و(أفلاطون) حاول أن يوجد تشريعات أو نظاما للمجتمع.. فألف (جمهوريته) كنظام متكامل للمجتمع واعتقد أن نظام الطبقات هو النظام الطبيعي في العالم الطبقة الأولى: الطبقة الذهبية (طبقة رجال الفكر).. وسمى الطبقة الثانية: الطبقة الفضية (**طبقة الجنود**) وسمى الطبقة الثالثة: الطبقة النحاسية (التجار والصناع والزراع والعاملون في الإنتاج).

حاول (أفلاطون) بعد هذا أن يضع نظاما لكل طبقة فحدد سن الزواج للفتاة، وسن الزواج للرجل من كل طبقة.

واعتبر الأطفال الذين يولدون خارج هذا التحديد الذي وضعه غير شرعية، يُتركون في العراء حتى يموتوا.

وأما طبقة الجيش فينبغي ألا تتزوج -في رأى (أفلاطون)- زواجا مستمراً.. ويجب ألا تمتلك شيئاً: لا ملابس، ولا عقار، ولا مال، ولا زوجة، ولا أولاداً وإنما يأتون في ليلة معينة، ويعقدون زواجاً بالقرعة لمدة سنة.. والأطفال الذين يأتون ثمرة هذا الزواج يودعون في مصحة، أو ملجأ، ويكونون أبنـاء الدولة، فضلا عن هذا يرى أن الشاب الممتاز -جسيمياً وعقلياً- يتصل جنسياً بمجموعة كبيرة من الفتيات الجميلات ومنطقه في هذا، كما يقول فى جمهوريته: نحن نعنى بالخيل، فننجب منها سلالات ممتازة، فلم لا نعنى بالبشر، مثلما نعنى بالخيل؟

إن الشبان الممتازين صحياً وبدنياً.. يجب أن تأتى لهم بالنساء الممتازات صحياً، وبدنياً، وجمالياً، ولا نجعل بينهما قيوداً فى الاتصال الجنسي، ثم نأخذ السلالة الممتازة الناجمة عن إتصالهما، لتكون نواة لارتقاء نوعية البشر فى الجمهورية.

وفي جمهوريتة إذا وُلد طفل مريض يُعدم، وإذا وُلد طفل مصاب بعاهة يعدم، وإذا وُلد طفل مشكوك فى ذكائه يعدم.

ولقد دعى (أفلاطون) نفسه مرة لتطبيق جمهوريته، فأخفق اخفاقاً كاملا، ثم دعى مرة أخرى بعد سنوات فأخفق أيضاً أخفاقا كاملا.

ومضت الإنسانية -في طريق التجربة والخطأ- تبحث عن تشريع يحكمها، ويزيل خلافاتها ويقيل عثراتها.. وكان من تجاربها المثيرة في هذا المجال مذهب (المزدكية) الذي استفحل أمره لدرجة أن ملك الفرس

أتبعه، وأعتنقه وطبقه. وهو مذهب يبدأ منطلقه الفكري من سؤال مطروح هو: ما الذي أقلق الإنسانية وأرقها، وأتعبها منذ فجر التاريخ؟

وأجاب المذهب المذكور قائلا: المال.. والنساء.. ولكي نزيل قلق الإنسانية، فلابد أن يكون هناك شيوعية كاملة فى المال والنساء.

وصادف ذلك هوى لدي ملك الفرس، فاتبع المذهب، وذهب (مزدك) وأتباعه إلى القصر، وأحب الاتصال بنساء الملك وبناته، وأخذ ولي العهد يتضرع إلى (مزدك) ويرجوه، في أن يترك والدته، وأخوته، حتى لقد قبل قدميه، وهو يتضرع إليه، فترك (مزدك) أمه وأخوته.

ثم آل الملك إلى ولي العهد فأتى بمزدك وقتله.

واندثرت تجربة إنسانية أخرى، تبحث عما تعتقد أنه عدل، وحق.. واستمرت الإنسانية في بحثها القلق، الذي تدفع ثمنه دائماً من أخطائها..

ثم جاء (ماني) الفيلسوف الفارسي الذي أراد أن يعالج مشاكل العالم بتطهيره من الناس وقال: إذا تطهر العالم من الناس فقد يظهر من البؤس والشقاء والشر، فشرع يمنع الزواج، ويمنع الاتصال الجنسي..

واتبع (ماني) كثيرون ونقص النسل، وكان في هذا أضعاف للدولة.. وأتى به ملك الفرس وسأله عن مذهبه أمام حشد من الناس من أتباعه، فراح (مانى)يحدثه بمنطقه عن مذهبه، ويدعو إليه.

فقال له ملك الفرس: (مادمت ترى أن تطهير العالم من الناس ينهي الشقاء فيه، فلنبدأ بتطهيره منك) وفعلا أمر بقتله، وقتل أتباعه.

الاختلاف في التشريع لا حد له، فهناك تشريع شيوعي، وهناك تشريع رأسمالي، والشيوعية نفسها مِلل ونِحل والرأسمالية كذلك.

بعض هذه التشريعات الحديثة تلغي الأديان نفسها.

(كارل ماركس) الذي خرج على العالم بأنه يجب أن يزول الدين، ويجب أن تتطهر الإنسانية من الدين، ومن فكرة الإله وجد من يتبعه وينشئ دولا على منهاج مبادئه.. ولست أدري: هل يكمن أن يكون هناك دليل أقوى من ذلك على أن الإنسانية التي وصلت إلى الذرى في حضارتها المادية،قد توقفت فى بعض نواحيها، ولم تتقدم خطوة واحدة، من الناحية الروحية؟

والخلاصة: أنه ليس هناك مقياس عقلي واضح، أو ثابت فى المسائل العقلية والنظرية والتشريعية يفصل بين الحق والباطل..

ولهذا التعارض كان لابد من سفينة آمنة، لا تغرق في البحر بالإنسانية.. ولا تزعزعها العواصف والأعاصير، ولقد نزلت الأديان هداية للعقل في الجانب النظري في التشريع، والأخلاق، ونظام المجتمع.

ومن خصائص الوحي فيما يتعلق بالتشريع أنه هاد للعقل.. ولا يتأتى أن يكون هناك إيمان قط بدون الاعتقاد بأن الدين هاد للعقل.. ويكون خارجاً عن دائرة الإيمان من اعتقد غير هذا.

ونزل التشريع الإلهي معصوما، وهذه قضية أخرى يؤمن بها كل مؤمن.. هذه العصمة يعبر عنها الله سبحانه وتعالي بقوله: (ومن يعتصم بالله، فقد هدى إلى صراط مستقيم).

وقال: (لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه. تنزيل من حكيم حميد).

ومن خصائص التشريع الإلهي أنه يكف الإنسان -تماماً- عن محاولة الخروج عليه.. أما بالنسبة للتشريع الوضعي، فاذا أنت وجدت فرصة للخروج عليه دون أن تُضبط، فلا جناح عليك، ما دامت عين القانون لم تلمحك.. لدرجة أن بعض الفلاسفة المنحرفين مثل (نيتشه) الذي أشاد به (اليهود) وروجوا له، يقول: إذا أمكنك أن تخرق القانون الوضعي، بحيث لا تقع تحت طائلته فاهدمه، إذا كان ذلك في مصلحتك.. بشرط أن، تكون ذكياً، لا تقع تحت طائلته.

أما القانون الإلهي فهو يكف الإنسان ظاهراً وباطناً، بينما القانون الوضعي لا يكفه إلا ظاهراً.. فالله عليم بذات الصدور، ولكن القانون الوضعي عليم بما يراه الشهود فحسب.

ومن خصائص القانون الإلهي: أنه حينما طُبِّق أعز الدولة التي طبقته.. وحينما غفل عنه ذل المجتمع الذي أدار له ظهره.. إما بالتناحر والبغضاء فيما بين الناس، وإما باستذلال المجتمع للفقر، أو للاستعمار، أو للتخبط والهزيمة..

ما المانع من تطبيق الشريعة الإسلامية بدلا من القانون الروماني، وقانون (نابليون)؟.

حقاً: لمــــاذا؟

لقد انتصرت الأمة الإسلامية، وعزت فيما سبق في ظل إيمان ثابت وطيد بالإسلام.. وكانت محترمة بين الأمم، مهيبة الجانب، قوية الشوكة، طيلة تمسكها بالشريعة الإسلامية.. ثم بدأت تنهار شيئاً فشيئاً، بعوامل الاستعمار لما انصرفت إلى الانحلال، والبعد عن الشريعة.

وجاء الاستعمار، فكان من أهم أهدافه أن، يستذلها عن طريق القضاء نهائياً - علي شريعة الله واستبداها بقانونه الوضعي، وأتى بعشرات القضاة من بلاده، بثيابهم المزركشة، وشعورهم المستعارة، ووقارهم المزيف، ليحكموا بغير ما أنزل الله.. وباسم الحرية الشخصية قتلوا كرامة الإنسان، بإباحة الربا، والبغاء العلني، والمقامرة، ما دامت غير مقترنة بالغش.

في أحد الأقطار الأفريقية حين أرادوا أن يجعلوها موالية للغرب، أخذوا خمسة وثلاثين ألف لقيط ويتيم، وكفلوا لهم رعاية أسطورية في ظل مذاهب تعادي الإسلام، وخرجوا منهم المهندسين، والأطباء، والقادة والإداريين، فلما خرج الاستعمار بجنوده، بقى أبناؤه الروحيون هم الذين يقودون أفئدة تهوى إلى المستعمرين بمثلهم العليا، وأساليبهم وأخلاقياتهم، وترتبط بهم، وتدور في فلكهم.

في مصر مثلا.. خرج الاستعمار بجنوده بعد أن زرع فيها مدرسة الحقوق التي كل نصيب الشريعة الإسلامية فيما ساعتان من اثنين وعشرين ساعة في الأسبوع.. وترك قوانين يخالف بعضها ما أنزل الله.. ولما تملكنا نظام سياستنا التعليمية لم تخرج عن قوانين (نابليون) والقانون (الروماني) والقانون (البلجيكي).. والنتيجة أن المحامي والقاضي وعضو النيابة الذي يتخرج في كلية الحقوق في مصر، وفي كثير غيرها من البلاد الإسلامية.. يخرج بعقلية أوربية، وفكر أوربي، وأنماط أوربية في القياس والتوجيه والمنطق.

وماذا يريد الاستعمار أكثر من أن يربط إليه أبناء أمة يتركها، بهذه الطريقة؟

الذي حدث شيء يستمر الإنسان في الحديث عنه في حسرة وألم، يحزان في النفس.

حدث في غيبة التشريع الإلهي هذه الكثرة من جرائم السرقة.. ولو اتبع التشريع الإسلامي لما كانت هناك سرقة ولا كانت هذه الكثرة الكاثرة من الخبائث والمنكرات.

مصر بلد إسلامي-ومازالت الأقطار الأخرى تحسن الظن بمصر- لكن البعض في هذا البلد يتباهى بإنتاج البيرة والخمر.

في الأسبوع الذي ذكرت فيه الجرائد أن مصر كسبت مليون جنيه من البيرة كتبت هذه الجرائد نفسها أن (السينما) خسرت ثمانية ملايين

جنيه، ثم يقولون في تبرير إباحة الخمور إنما نبيح الخمور من أجل السائحين، كل هذا هراء، لا يأتي إلا من المنحرفين عقلياً، وأخلاقياً، وليس عندهم فكرة عن الآية الكريمة:

(ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض).

يجب أن يعود التشريع الإسلامي: يعود لأمرين:

(١) الأمن على النفس، والمال، والعرض، يتسنى ذلك حتى لمن لم يكن مسلماً.

(٢) استمرار النصر بتوفيق الله.

❋ ❋ ❋

ثم ختم الإمام محاضرته بتوجيه الدعوة للحاضرين للعمل على إعادة شريعة الله إلى حياتنا فيقول:

ويكون لك الفضل- أيها القضاء والمفكرون والزعماء في وضع القوانين التي يستمر بها النصر والأمن على المال والعرض والنفس.

ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم.

❋ ❋ ❋

(ملحق ٢)

موقف المسلم من الحضارة الحديثة



[هيمنت الحضارة الغربية الحديثة بوسائلها وقيمها على العالم، وكان المسلمون أعظم الخاسرين إذا اخذوا بها كما هي فأصابتهم سمومها.

ومع أن المسلمين هم الأصل في هذه الحضارة الحديثة ، إلا أنها أخذت من الإسلام التقدم العلمي فقط وبنت عليه، وتركت الجانب الروحي والأخلاقي. ومع تقادم الزمان نسى كثير من المسلمين هذا الأمر وأصبحوا يعظمونها ويظنون أنها كل شيء..

أخذ الشيخ على عاتقه مسئولية ا لتعريف بحضارة الإسلام وبهذه الحضارة الحديثة، وكيف يستطيع المسلم أن يستفيد من حضارة المادة -هذه- دون أن يضيع فرصته في الاستفادة أيضاً من حضارة الإسلام.

فيما يلي ملخص لمحاضرة ألقها الشيخ في معهد الدراسات الإسلامية بجامعة أم درمان سنة ١٩٦٧م وفي عدة أماكن أخرى فيما بعد].

قال فيها- بعد الحمد لله والصلاة والسلام علي خاتم رسل الله صلى الله عليه وسلم[١].

" ما موقف علماء الإسلام من الحضارة الحديثة؟

ما موقف المسلم- على وجه العموم- من الحضارة الحديثة؟

توزع الناس على ثلاثة آراء:

---

(١) شيخ الإسلام ص ١٧٤- ١٩٤.

الأول يرى: أن الحضارة الحديثة حضارة متكاملة: مادة ومعنى، شكلا وجوهراً فلنأخذها ككل.

والثاني: يرفض الحضارة الحديثة جملة. حاولت بعض الدول في الماضي أن ترفض الحضارة الحديثة كلية، وأن، تغلق في وجهها الأبواب. ولم توفق الدول ولم يوفق الأفراد أيضا فيما يتعلق بهذه المحاولة.

والثالث يرى: أنه علينا أن نأخذ الحضارة المادية، أما الحضارة النظرية فإننا نأخذ منها الصالح ونترك منها غير الصالح.

وهذا الرأي يبدو أنه رأي الأغلبية.

هذه هي مجموعة الآراء فيما يتعلق بالموضوع بل هي مجموعة الاحتمالات الفعلية في ذلك ومع هذا فإنني - أنا شخصا - لم أرتض بعد رأيا.

أما فيما يتعلق بأخذ الحضارة كلا لا يتجزأ، فأظن أن المسألة في الجو الإيماني وفي الجو الإسلامي السليم لا تحتاج إلى مناقشة كثيرة.

هذه الحضارة الأوربية فيها الكثير مما يخالف المبادئ الإيمانية والمبادئ الإسلامية فلا يتأتى أن يسود رأى كهذا في الجو الإسلامي.

أما فيما يتعلق برفضها ككل فإن هذا واقعياً، لم يتحقق، لا في الأفراد ولا في الجماعات، ولا في الدول، ولا في الأقطار أيا كانت.

ويأتي الرأي الوسط الذي ساد ويسود في كثير من الأوساط، والذي يبدو لكثير من الناس أنه الرأي السليم الصحيح. نأخذ من الحضارة الحديثة الصالح ونترك من الحضارة الحديثة الضار والفاسد.

وبكلمات بسيطة يمكننا أن نرى أن هذا الرأي فاسد أيضا إذ يعتمد على الفكر، على العقل، على الإنسـان، دون ملاحظة للدين. إذا قلنا بأخذ الصالح فما هو الصالح؟ وفي رأي من؟

إن الصالح يختلف من إنسان إلى آخر

ما المخرج إذن من هذا؟ ما هو أذن موقفنا من الحضارة الحديثة إذا كنا لا نقبلها ولا نرفضها. ولا نقبل التوسط فيها؟

إن الحضارة الحديثة تنقسم إلى قسمين القسم المادي: قسم المعامل والمصانع، قسم الطب، قسم الكيمياء، قسم الطبيعة، هذه الناحية المادية البحتة التي تتأتى عن طريق الملاحظة والتي تحكمها التجربة، هذه الناحية المادية من الحضارة الحديثة لا يتأتى لنا قط أن نقول أن أوروبا ابتدعتها ابتداعا أو اخترعتها اختراعاً.

وهذه الناحية نفسها الناحية المادية لها جانبان، جانب المنهج، وجانب الموضوع.

أما فيما يتعلق بجانب المنهج فإنه منهج الاستقراء، وهو منهج تتبع الجزئيات للوصول إلى نتيجة كلية. هذا المنهج الاستقرائي. أو المنهج العلمي أو منهج السمع والبصر: أي منهج الملاحظة. هو المنهج الإسلامي. لقد سار عليه الإسلام وسار عليه المسلمون قبل أن تنشأ الحضارة الأوربية.

(إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا).

السمع والبصر أساسا الملاحظة والتجربة أو عنهما تنشأ الملاحظة والتجربة.

هذا منهج الإسلام. اتخذه المسلمون منذ زمن بعيد. وقد اعترف الغربيون أنفسهم بأن الإسلام هو الذي بدأ بوضع المنهج التجريبي. واعترفوا بأن (روجيه باكون) الذي يعتبر في أوروبا المؤسس الأول للمنهج التجريبي. اعترفوا بأنه أخذه عن العرب وبأنه لم يكن إلا طالباً في مدرسة العرب. اعترفوا بهذا صراحة، يقول أحد كتابهم وهو الأستاذ بريفولت في كتابه (بناء الإنسانية):

ليس لروجيه باكون ولا لفرنسيس باكون الذي جاء بعده الحق في أن يُنسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، فلم يكن روجيه باكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلي أوربا بالمسيحية، وهو نفسه لم يمل قط من التصريح بأن تعلُّم معاصريه في أوربا اللغة العربية وعلوم العرب، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة، ويقول في مكان آخر من كتابه: ولقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث.

ويقول أيضاً: ولم يكن العلم العربي وحده هو الذي أعاد إلى أوربا الحياة بل إن مؤثرات كثيرة من الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية.

لا أريد أن أطيل في قراءة نصوصه وهي كثيرة كأنها تثبت أن هذا

المنهج التجريبي إنما هو المنهج الذي قامت عليه الحضارة العربية. وأن أوربا إنما أخذته من العرب. ولم تبتدعه ابتداعا، ولم تكتشفه اكتشافاً.

هذا فيما يتعلق بالمنهج. أما فيما يتعلق بالموضوع فإن المؤلف نفسه الذي ألف هذا الكتاب الذي تحدثنا عن بعض آرائه، بقول في صراحة لا لبس فيها إن العلم الأوربي مدين للعلم الإسلامي العربي في كثير من موضوعاته أيضاً.

ومما هو معروف أنه كان في الحضارة الإسلامية أفذاذ فيما يتعلق بالعلم الطبيعي، كان هناك ابن الهيثم وكتابه في البصريات وفي الأضواء.

ويري كثير من المؤرخين للحضارة الأوربية أن كتاب (باكون) نفسه في الحرارة والضوء ما هو إلا نسخة من كتاب ابن الهيثم في البصريات. كان عندنا ابن الهيثم في الطبيعة، وكان عندنا الرازي وابن سينا في الطب، وكان عندنا جابر بن حيان فيما يتعلق بالكيمياء، وكان عندنا الكندي فيما يتعلق بالرياضيات.

كان عندنا كل هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين تعترف لهم أوربا إلى الآن فيما يتعلق بمنهجهم التجريبي المبني على الملاحظ وعلى التجربة.

وفيما يتعلق بالموضوعات التي تطرقوا إليها واستنتجوا منها النتائج التي لا تزال لها قيمتها للآن.

المنهج التجريبي، المنهج الحديث هذا، هو منهج الإسلام. ويدعونا الإسلام أيضا إلي أن نكون في هذا الجانب المادي أقوى ما نكون.

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة).

والاستطاعة لا تكاد تحد وكلما وصل الإنســـان إلى حد من الاستطاعة تفتحت أمامه آفاق استطاعات جديدة: يجب عليه أن يلجها فهو في كل آونة مترق في عالم الطبيعة، وهو في كل آونة متتبع لهذه القوانين مترق فيها حتى يظل دائماً في القمة، حتى يكون مركزه دائماً وباستمرار في القمة من القوة المادية.

وإذا كان المسلمون قد تأخروا في هذا الجانب فليس ذلك ذنب القرآن ولا ذنب الإسلام. وإنما هو ذنب تكاسلهم وخمولهم.

فالإسلام يدعو المسلمين إلى أن يكونوا أقوى دولة في العالم، فإذا ما ضعفوا كانوا آثمين في نظر الإسلام، كانوا آثمين وكانوا مقصرين في حق رسالتهم التي كلفهم سبحانه وتعالى بها.

أنها آخر الرسالات، أنها الرسالة الأبدية، أنها الرسالة الدائمة: ولابد من قوة دائمة في هذا العالم تسندها، إذا لم تكن هذه القوة فلا يكون لهذه الرسالة من التأثير ومن النفوذ ما يريده الإسلام منها ومن أصحابها.

الجانب المادي إذن جانب في الإسلام، وما علينا إلا متابعة الإسلام في هذا الطريق بكل وسيلة ممكنة وبكل طريقة تتيسر.

ولا يقال إذن حينما نسير في الحضارة المادية مكتشفين ومخترعين ومتبنين الاكتشافات والاختراعات أننا أخذنا عن الحضارة الأوربية،

وإنما يقال أننا تابعنا الخطوات التي تابعها وسار فيها أسلافنا. وإذا كنا في هذا المجال نستعين بهذا أو ذالك: فإن هذه الاستعانة ليس معناها أخذ من حضارة، لأن هذا الجانب لا لون له، أي الرقي المادي لا لون له. لا يقال هذه الكيمياء ألمانية أو فرنسية، أو إنجليزية، وإنما هي الكيمياء أينما كانت وأينما وجدت لا تتسم بلون فإذا استعنا بهذا أو بذاك في سبيل متابعة أسلافنا فيما يتعلق بهذا المجال فلسنا متابعين، وإنما نحن نواصل هذه المجهودات التي بدأها أسلافنا وانقطعنا عنها فترة، ونريد أن نعود إليها من جديد. ويأتي ذلك القسم الآخر من أقسام الحضارة الأوربية وهو القسم الثقافي.

* * *

وتسير الحياة بالمسلمين هادئة في جوانبها الحضارية إلي أن يأتي العصر العباسي وتبدأ الترجمة.. لم يعترض عليها معترض فيما يتعلق بجانب الطب، وبجانب الطبيعة، أو بجانب الكيمياء، ولكن المسلمين في أول العهد العباسي كانوا نافرين كل النفور من أن تترجم ما وراء الطبيعة اليونانية.

أن ما وراء الطبيعة: تعني الأبحاث التي تتصل بالعقيدة.

وقال المسلمون، وأجمعوا على أنه إذا كانت عقيدة اليونان حقا فعندنا ما هو أحق منها وهو القرآن الكريم في الأسلوب الإلهي.. وإذا كانت باطلا فإننا في غنى عنها. وكذلك كان شأنهم وموقفهم فيما يتعلق بالأخلاق.. كانوا يعتزون بأخلاقهم ويعتزون بعصبيتهم لعقيدتهم وأخلاقهم المنزلة الموحاة، إلي درجة أنهم لا يرون أن يكون هناك أي

كتاب، أو رأي يقوم بجوار هذه المبادئ الإلهية الإسلامية سواء أكانت عقيدة أم أخلاقا. ولم يترجموا كتب الأخلاق، إلى أن جاء المأمون.

والمأمون بتربيته الفارسية كان عنده من التهاون القليل أو الكثير، ولم يكن عنده من التحرج ما كان عند غيره. فأمر بترجمة الكتب التي تتصل بما وراء الطبيعة، والكتب التي تتصل بالأخلاق على الرغم من النفور العام من المسلمين المؤمنين المتدينين.

إن العقيدة الإسلامية والأخلاق الإسلامية هي التي تُكوِّن ذاتية المسلم: أي أن ذاتية الأمة الإسلامية لا تتكون بكيمياء أمريكية لأنها كما قلنا لا لون لها ولا تتكون بطبيعة لأن الطبيعة لا لون لها. حقيقة أنه لابد من الكيمياء ولابد من الطبيعة كما قلنا للقوة وللغلبة، وللسلطان. ولتأدية الرسالة، من أجل الحق والخير.

ما وراء الطبيعة مجال نظري بحت، وهو يختلف من فرد إلي فرد آخر، ويتعدد بعدد اختلاف الأفراد.

إذا جئنا للجو اليوناني فانا نجد أن أفلاطون فيما يتعلق بتصور(الإله) يختلف عن أرسطو، وتصور أرسطو يختلف عن تصور الرواقيين، وتصور الرواقيين يختلف عن تصور أبيقور، أو الأبيقوريين.

اجتمع سقراط باثنين من الفيثاغورثيين، من كبار فلاسفة الفيثاغورثية، أحدهم اسمه سيمياس، وكان من كبار الفلاسفة، اجتمعوا يتناقشون فيما يتعلق بخلود الروح، هل هي باقية بعد الموت، هل هي

مستمرة، أم أنها فانية؟

هل الإنسان حينما يموت يموت مادة وروحا، أم أنه يموت مادة فقط وتبقى الروح؟ وهل الروح خالدة؟

كانوا يتحدثون في هذا الموضوع ويحاولون ما استطاعوا أن يقيموا الأدلة على خلود الروح، علي أنها باقية بعد الموت، ثم تنتهي بهم الأدلة وينقطع بهم البرهان، ويقول سيمياس، ويقول سقراط، وسقراط معروف بأنه أبو الفلاسفة.

يقول سيمياس لسقراط إن الموضوع مازال في حاجة إلى بحث أكثر. ولكن هذا جهد العقل، وهذا غاية ما يستطيعه العقل، وأوافق سقراط، ثم ويقول متأسفاً: إن العقل في مجال ما وراء الطبيعة مثله مثل لوح من خشب يريد الإنسان أن يقطع به البحر في يوم عاصف. أما مثل الدين بالنسبة لما وراء الطبيعة فانه المركب والسفينة الأمينة لقطع البحر.

ويأسفون جميعاً على أنه لم ينزل دين يحدد الموضوع تحديداً تاما. يحدد مسألة خلود الروح. ويعترفون بأنه لو كان قد نزل دين يحدد هذا الأمر فأنهم كانوا يستجيبون إليه ويؤمنون به.

خذ ما وراء الطبيعة. خذ الخلاق. خذ التشريع. خذ هذه النواحي الكثيرة المتعددة التي سميت بأسماء علوم مختلفة. وهي كلها نظرية، فإنك ستجد العقل دائما هو لوح الخشب الذي لا يتأتى أن يقطع به الإنسان البحر مهما احترس ومهما كان يحاول أن ينجو بهذا اللوح.

والفلسفة فيما يتعلق بالعالم الحديث، كل فلاسفة العصر الحديث مختلفون على أنفسهم. ليس بينهم فيلسوف واحد يتفق مع الآخر، وإلا لما كان في حاجة إلي أن ينشئ فلسفة جديدة لو اتفق مع زميله.

والمخرج أن نصدر في كل هذه الأمور عن الدين، ولا مجال لرأي آخر إذا أخلصنا. لابد من أن نعتمد في هذه المجالات الثلاث:

مجال ما وراء الطبيعة. مجال الأخلاق. مجال التشريع، على الدين.

هذه المجالات ثابتة في الدين مستقرة لا تقبل التطور، مجال العقيدة لا يقبل التطور، العقيدة هي هي، لا تختلف العقيدة الدينية الإسلامية من بيئة إلى أخرى ولا من قطر إلى آخر، ولا من زمن لزمن، ولا من مكان لمكان.

ولا تختلف الأخلاق الإسلامية أيضاً من بيئة إلى أخري، ولا من مكان لمكان ولا من زمن لزمن.. فهي هي.

أما فيما يتعلق بالتشريع فإن كثيراً من الناس يعتقدون أن التشريع الإسلامي متطور. ولكن التشريع مبادئ ووسائل. وقد يترك الإسلام بعض الوسائل غير محددة. يتركها للزمن، ولكن النتائج أو الغايات هي هي..

مثلا مبدأ الشورى لم يحدد وسيلته الإسلام أي أن الشورى نفسها مبدأ إسلامي ثابت، ووسيلة الشورى لم يحددها الإسلام، وتركها للبيئات وتركها للأزمان يحددونها عن طريق البرلمان، عن طريقة أخرى يحددونها كيفما شاءوا.

ولكن الغايات، النهايات، المبادئ، القواعد، إنها ثابتة.

ويتساءل كثير من الناس وما شأن الاجتهاد إذن؟

إن المجتهدين في الإسلام كثيرون فما شأن الاجتهاد في الدين إذن؟ والواقع أن هذا الجانب يضل فيه كثير من الناس. أو يزل فيه كثير من الناس. الاجتهاد في الإسلام معناه، أن يحاول المجتهد ما استطاع، أن يحاول ما أمكنه: أن يربط بين حادثة حدثت جديدة وبين قاعدة إسلامية موجودة أو أن يدخل في نطاق قاعدة إسلامية عامة، حادثة من الحوادث التي حدثت جديدة.

فليس الاجتهاد إذن ابتداعا، أو اختراعا أو تطورا ليس فيه شيئاً من هذا القبيل وإنما هو محاولة جاهدة كادحة، دائبة، مستمرة للوصول إلى ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم، أو ما كان يمكن أن يكون رأى الرسول صلى الله عليه وسلم لو كان الرسول موجوداً.

والثقافة في أوربا، الثقافة النظرية التي لا تتصل بالتجربة أو بالملاحظة، متطورة لأنها بشرية، وكل ما هو بشري، من نتاج العقل البشري: هو نسبي. وهو إذن متطور وقد يكون هذا تطوراً إلى القديم لا تطوراً إلى شيء جديد، يعني مثلا مذهب الوجودية الحالي الذي يقال إنه مذهب جديد كل الجدة، إنما هو مذهب السفسطائية القديمة لا أكثر ولا أقل، وعلي كل حال فإن الكتب الحديثة تجدها دائماً قائلة بفكرة التطور، وأن الإنسانية تطورت وأنها.. الخ..

كل هذه النواحي إذا أدخلناها في محيط العقيدة أو أدخلناها في محيط الأخلاق أو أدخلناها في محيط الدين، فإنها نجعل من الدين مجموعة من المبادئ النسبية، ومعنى مجموعة من المبادئ النسبية أنها ليست حقائق مطلقة، وأنها يمكن أن تتطور، وتتطور إلي اللانهاية.. ويأتي يوم من الأيام وقد انفصلنا عن الدين، وعن المبادئ الدينية الانفصال الكامل، والانفصال التام.

الثقافة الحديثة أو الحضارة الحديثة في جانبها الثقافي، إذ رحبنا بها فإن ذلك يعد من الحجب التي تحجب شيئا فشيئا الفكرة الإسلامية والذاتية الإسلامية، وإنه لمن المعقول أننا وعندنا القرآن وعندنا السنة، وقد طبق القرآن وطبقت السنة، فكان ازدهار الأمة الإسلامية، من المعقول أن نصدر في ثقافتنا عن ذاتية إسلامية: عن قرآن وسنة. وكل هذا البريق فيما يتعلق بالحضارة الحديثة؛ في جانبها الثقافي، يجب ألا يخدعنا.

* * *

ويتكلم الشيخ عن خدعة الحرية والمساواة التي يتشدق بها الغرب ويستفيض في بيان ذلك، ثم يقول:

إن الحضارة الغربية الحديثة فيها من أمثال ذلك أشياء كثيرة يجب أن نتنبه لها.

ومن هذه الأشياء في الجانب الثقافي أيضاً: ما يقال من أن العلم للعلم، أو الأدب للأدب، أو الفن للفن، كل هذه لها خطورتها فيما

يتعلق بالأجواء الإيمانية.

في جو الإيمان لا يتأتى مطلقا أن يكون الأدب للأدب، وإنما الأدب للأخلاق الفاضلة، لترقية الفطرة، لإثارة الشعور الديني الكريم. لكل هذه المعاني، أما فكرة الأدب للأدب فأنه لا يستسيغها مطلقا عقل أو قلب مؤمن.

كذلك فيما يتعلق بالفن للفن، الفن للفن معناه أنك ترسم الصورة العارية كما شئت، أو ترسم الصورة التي تثير الغرائز كما شئت، الفن للفن أيضا فكرة لا يتأتى لمؤمن أن يقول بها وأن يمتدحها أو أن يتبناها شعاراً له.

هذه النواحي كلها وكثير غيرها فيما يتعلق بالثقافة الغربية الحديثة: الثقافة النظرية، يجب أن نكون بعيدين عنها كل البعد، وأن نتبع في هذا الجانب الإسلام وحده نجعله الأساس. نجعله المصدر الموجه.

أن هذه الآراء الثقافية النظرية الحديثة هي -كما يقول أحد كبار المفكرين في أوربا- مثلها كمثل (الموضة) وأزياء النساء، تتبدل من عام إلى عام ومن فترة إلى فترة.

إن (موضة) هذا العام في علم النفس مثلا هي كذا، هي نظرية فلان، أو هي نظرية فلان. والموضة في العام المقبل أو في العام الماضي نظرية أخرى. وهكذا الأمر فيما يتعلق بالفلسفة، فيما يتعلق بالتشريع الخ..؟

هذه النواحي كلها تجعلنا حذرين فيما يتعلق بالقسم الثقافي في الحضارة الحديثة.. بل يجب أن نكون بعيدين عنه كل البعد، وأن نصدر عن ذاتية إسلامية وعن مبادئ إسلامية، عن قاعدة إسلامية، عن جو إسلامي.

والنتيجة التي أريد أن انتهي إليها من هذه المحاضرة، وهي الخاتمة، إنما هي العودة إلى الإسلام، العودة إلي الإسلام: ملاحظة وتجربة ومنهجاً وقوة مادية: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)- العودة إلى الإسلام من تسخير الأرض تسخير السماء، وتسخير ما بين الأرض والسماء وتسخير الكواكب وتسخير الشمس والقمر وتسخير البحار والأنهار.

العودة إلى الإسلام أقوى ما تكون في الجانب المادي.

والعودة إلي الإسلام والاعتزاز بالإسلام أقوي ما تكون في الجانب الثقافي سواء اتصل ذلك بالعقيدة أو اتصل ذلك بالتشريع أو اتصل ذلك بالأخلاق.

* * *

مراجـــع

- الحمد لله هذه حياتى، د. عبد الحليم محمود، دار المعارف بمصر.

- شيخ الإسلام عبد الحليم محمود، د.رؤف شلبى، دار القلم، الكويت.

- قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، د. عبدالحليم محمود، دار المعارف بمصر.

- أبو البركات سيدى أحمد الدردير، د. عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

- أبو ذر والشيوعية، د. عبد الحليم محمود، دار المعارف.

- الإمام النورانى الزاهد عبد الحليم محمود، د. عبد الغنى عبد الحميد رجب، بدون ناشر.

- مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن، على عبد العظيم، مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر الشريف.

- الإسلام والعقل، د. عبد الحليم محمود، دار المعارف.

- شخصيات إسلامية معاصرة، إبراهيم البعثى، دار الشعب، القاهرة.

- من أعلام العصر، كيف عرفت هؤلاء، د. محمد رجب البيومى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة.

فهرس

كتب المؤلف

- غضبة لله [١٩٨٣].
- فضل المرض والبلاء والرضا بالقضاء [١٩٩٦].
- وبالوالدين إحسانا [١٩٩٧].
- أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم [١٩٩٧].
- حزب الاستغاثات بسيد السادات للنبهاني (إعداد وتقديم) [٢٠٠٠].
- موكب الشهداء: سبعون من شهداء الصحابة [٢٠٠١].
- السياحة .. السفر إلى الله [٢٠٠٣].
- الإيمان بالقضاء والقدر [٢٠٠٣].
- أبناء الخالة أولياء الله الثلاثة [٢٠٠٣]
- قصتي مع التصوف لخالد محمد خالد (إعداد وتقديم) [٢٠٠٤].
- صورة الحبيب صلى الله عليه وسلم (بالاشتراك مع د. عطية مصطفى) [٢٠٠٤].
- شوقي شاعر الخلافة الإسلامية [٢٠٠٤].
- الرضا.. راحة الطائعين ودرجة المقربين [٢٠٠٤].
- أفراح المسلمين بمولد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم [٢٠٠٥].
- ملحمة الحب الخالد. كيف أحب الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم [٢٠٠٥].
- مدارس الحب مصانع الرجال [٢٠٠٥].
- بردة البوصيري – دراسة تاريخية [٢٠٠٦].
- خلاصة تجارب الصالحين [٢٠٠٦].

- من أقطاب الأمة في القرن العشرين [٢٠٠٧].
- الله في أدب نجيب محفوظ [٢٠٠٧].
- سلطان القلوب – الشيخ عبد الرحيم البرعي [٢٠٠٨].
- الدنيا يا مسلمين [٢٠٠٨].
- إنصاف الإمام [٢٠٠٩].
- أحد عشر كوكبًا من سماء مصر [٢٠٠٩].
- موسوعة صلحاء الأمة (مع آخرين) [٢٠٠٩].
- تاريخ الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم ومظاهره في العالم [٢٠١٠].
- لوجي والكتب (حكايات تحكيها لطفلك) [٢٠١٢].
- من معارف السادة الصوفية [٢٠١٣].
- رفع أعلام النصر بذكر أولياء مصر –الجزء الأول– [٢٠١٣].
- قصص الأولياء للواعظ والخطيب والمعلم والمربى والقارىء العادى– [٢٠١٤]
- من معارف السادة الصوفية (المجموعة الثانية) – [٢٠١٤].
- رفع أعلام النصر بذكر أولياء مصر – الجزء الثانى– [٢٠١٥].
- الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود (أهرام مصرية معاصرة) [٢٠١٥].
- ربانى الأمة الشيخ صالح الجعفرى (أهرام مصرية معاصرة) [٢٠١٥].

تطلب من دار المقطم للنشر والتوزيع بالقاهرة